Inheriting jobs in Damascus during the Ayyubid and Mamluk Periods Financial Management jobs as a model

Asist. Prof. Riad Salim Awad (Ph.d)
Kirkuk University/ Faculty of Arts, Iraq
riadawad90@uokirkuk.edu.iq

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i144.3856

Abstract:

During the rule of the Ayyubid and Mamluk states, a number of functions of financial management emerged in Damascus, such as al Hasaba - and agency of the treasury house - wikalat bayt al-mal- , in addition to the function of the overseer – al-nazar-, It was distinguished by a feature that was demonstrated by the historical sources that spoke about the history of the Islamic administrative system, namely the feature of inheriting these functions among some of the scholars of the famous families, the prevalence of this phenomenon reflected a set of historical facts about the features of the administrative system in Damascus, including that the family has an important role in supporting the administrative life, and that the ruling authority agreed to the continuation of this phenomenon - inheriting jobs - among those scientific families because they are confident that the correct tool for evaluating the administrative apparatus in the country He is the scholar who is the son of these ancient families, in other words, the long history that the family owned was a reason for the authority to choose its scholars to take over the functions of financial management at the time.

keywords: Damascus, Ayyubid, Mamluk, job, financial management.

التوارث الوظيفي في دمشق خلال العصرين الأيوبي والمملوكي وظائف الإدارة المالية انموذجاً

أ. م. د. رياض سالم عواد
العراق/ جامعة كركوك/ كلية الآداب
riadawad90@uokirkuk.edu.iq

(مُلَخَّصُ البَحث)

برز في دمشق إبّان حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية عدد من وظائف الإدارة المالية كالحسبة ووكالة بيت المال فضلاً عن وظيفة النظر، اتّسمت بسمة شخّصتها المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ التنظيمات الإدارية الإسلامية، ألا وهي سمة توارث هذه الوظائف بين بعض رجالات الأسر العلمية التي اشتهرت آنذاك، ومثّلت شيوع هذه السمة أو الظاهرة جملة من الحقائق التاريخية عن معالم النظام الإداري في دمشق منها أنّ للأسرة دوراً أساسيّاً في دعم الحياة الإدارية، وانّ السلطة الحاكمة آنذاك وافقت على استمرار هذه السمة – التوارث الوظيفي – بين تلك الأسر العلمية لأنها واثقة بأنّ الأداة الصحيحة لتقويم الجهاز الإداري في البلد هو العالِم الذي هو سليل هذه الأسر العريقة، أي بمعنى آخر كان للتاريخ المشرّف الذي امتلكته الأسرة سبب في اختيار السلطة لعلمائها لتولّي وظائف الإدارة المالية آنذاك.

الكلمات المفتاحية: دمشق، الأيوبيين، المماليك، وظيفة، الإدارة المالية.

المقدمة:

تميّز نظام الإدارة المالية في مدينة دمشق في زمن حكم الأيوبيين والمماليك بالرصانة والتماسك بسبب توافّر مقوّمات ذلك، منها حرص السلطة الحاكمة لهذه المدينة على صبغ نظام إدارتها بصبغة الشفافية والأمانة والمهنية والعدالة، وتأكيدها على تجفيف كل منابع الفساد التي تعمل على نخر وإغراق أسس هذا النظام، كما عملت السلطة على رفد الجهاز الإداري لدمشق بخيرة العلماء الذين تمتّعوا بالخبرة والكفاءة، فضلاً عن الصفات الحميدة الأخرى التي حملوها، ممّا أدّى الى تطوّر هذا النظام في دمشق وسيره على وفق خطوات ثابتة على مرّ القرون، ولكن ما يميّز هؤلاء العلماء الذين اختارتهم السلطة انهم سليلو أسر علمية مشهورة في مدن العالم الإسلامي ومنها مدينة دمشق، هذه الأسر التي حرصت على إنجاب كوكبة من العلماء لم يساهموا فقط في دعم الواقع العلمي فحسب بل أضحى لهم الدور البارز في ميادين الإدارة المالية، إذ توارثوا وظائفها المهمّة وهي الحسبة ووكالة بيت

المال ووظائف النظر في مختلف مؤسسات الدولة الإدارية، وبناءً على ما سبق تكمن أهمية إعداد هذه الدراسة.

أمّا سبب اختيار موضوع الدراسة فهو لأجل بلوغ بعض الأهداف ومنها، التعرّف على طبيعة النظام الإداري القائم في دمشق آنذاك، إن كان نظاماً يتّصف بالرصانة والجودة، والاستقلالية، أم كان نظاماً عبثيّاً، غير منظّم، يسوده الفساد والمحسوبية، وتسليط الضوء على أحد أهم الوظائف التي يستند عليها نظام الإدارة المالية في دمشق وقتها، ومعرفة صفات ومهام متولّي هذه الوظائف، وبيان دور السلطة الحاكمة في ترسيخ أسس النظام الإداري، وتشخيص أثر هذا الدور في دعم ديمومة رصانة هذا النظام، فضلاً عن بيان دور الأسرة وإثبات أنها ليست الوحدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع فحسب، بل هي اللبنة الأولى التي يبنى عليها النظام الإداري في البلد، ومن ثم فهناك بعض من الأسئلة المطروحة أمام الدراسة تسعى للإجابة عنها تباعاً وهي: هل كان قرار التعيين في وظائف الإدارة المالية يصدر من جهة واحدة معيّنة؟، وهل كان قرار التعيين للموظف يستند على معايير وشروط ومواصفات موضوعة سلفاً يجب توافّرها لدى الموظّف؟، وهل اتّصف نظام الإدارة المالية في دمشق بالنزاهة والشفافية، أم شابه الفساد؟، وهل كانت وظائف الإدارة المالية تمثّل وحدة إداريّة مستقلة عن الأخرى، ولها موظفوها أم خُصّص لكل وظيفة شخص واحد يتولّى وحده تنفيذ مهام وظيفته؟.

ولم تخلُ الدراسة من الصعوبات العلميّة التي واجهتها في أثناء عملية البحث، وتمثّلت أهم هذه الصعوبات في طبيعة المعلومات التي أوردتها مصادر التاريخ الإسلامي ولا سيما كتب التراجم والطبقات التي عادة ما يركن إليها الباحث في تقصّي أخبار وسير العلماء، فإن المعلومات التي جاءت في هذه المصادر – كتب التراجم والطبقات – عن الدور الإداري للعلماء يمكن أن نصفها بأنها عبارة عن اشارات مختصرة وسريعة العرض عن كل عالم، والسبب في ذلك أن مؤرّخي الطبقات والتراجم آنذاك اعتمدوا منهجية تكاد تكون موحّدة في أغلب مؤلفاتهم، وهي عند سردهم لأخبار العالم المقصود بالترجمة غالباً ما يجري التركيز على الحياة العلمية لهذا العالم، بذكر نشأته العلمية، ورحلاته في طلب العلم، وشيوخه، ونتاجه العلمي، ثم تذكر تلامذته، وكذلك ذكر صفاته الخَلقيّة والخُلقيّة مدحاً أو قدحاً، أمّا ما يتعلّق بجهوده في مجال الحياة الإدارية عادة ما تكتفي تلك المصادر بعرض سريع عن أهم الوظائف الإدارية التي شغلها هذا العالم، دون التطرّق إلى مرسوم تعيينه وصاحب هذا المرسوم، أو مجريات حياته في الوظيفة، ثمّ تختم الترجمة في بعض الأحيان بالحكم عليه إن كان حسن السيرة بعمله الإداري من عدمه، ولتأكيد ذلك جرى اقتباس بعض من النصوص المقتضبة التي كتبها هؤلاء المؤرّخون حكماً على السيرة الإدارية لعلماء الأسر المقصودة

بالبحث، لذلك افتقرت الدراسة الى تفاصيل حياة العلماء في عملهم الإداري، لإغفال ذكرها في معظم مصادر التراجم والطبقات التي اعتمدتها الدراسة.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمصادر التاريخية التي تناولت تاريخ التنظيمات الإدارية للدولة الاسلامية ووصف هيكلها الإداري، ومنها على سبيل المثال لا الحصر كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) لأحمد بن علي الفزاري القلقشندي القاهري (ت٨٢١هـ)، الذي تكلّم بإسهاب في كتابه المشار إليه عن طبيعة الجهاز الإداري في مصر وبلاد الشام ومنه دمشق، ورسم بدقّة معالم الهيكل الإداري آنذاك، بتعريف كل وظيفة على حدا، وبيان مهام متولّيها، والشروط والصفات التي يجب ان تتوافّر فيه بشكل عام، غير أن القلقشندي وأقرانه ممّن اختصّوا بتوثيق هكذا نوع من الأخبار لم يتناولوا في مصنفاتهم تاريخ سير الموظفين الذين اعتلوا المناصب الإدارية، والتطرّق لمجريات عملهم الوظيفي، وذلك بالتأكيد فيه من الصعوبة الكبيرة امامهم لأن أعداد الموظفين كانت كبيرة وتحتاج إلى مجلدات عريضة، وأكتفوا ومنهم القلقشندي بذكر بعض مراسيم وتواقيع التعيين أو التنصيب في وظائف الدولة لبعض الموظفين من العلماء المشهورين آنذاك وليس جميع الموظفين، لذا أضطر الباحث في دراسته إلى جمع الاشارات الواردة في المصادر التاريخية ومنها كتب التراجم والطبقات عن دور العلماء الإداري وتوحيدها، بعد تقصّي شتات تراجمهم، وتتبّع اصولهم لمعرفة انتسابهم الصحيح للأسرة الواحدة، ولا سيما الاسرة التي لم يشتهر اسمها على أنها أسرة بل اشتهر اسم عالمها، ثمّ التأكد من توارث الوظائف فيما بين افرادها بشكل متسلسل من الاب إلى الابن أو الاخ أو الحفيد ... ألخ، وفي ذلك نوع من صعوبة واجهها الباحث أيضاً لأنه لم تذكر بعض المصادر التاريخية سلسلة التوارث الوظيفي لوظيفة معينة داخل الاسرة بل هي نتيجة توصّلت إليها الدراسة وخرجت بها بوصفها عنواناً رئيسا لها.

قسّمت الدراسة على ثلاثة مباحث ،اختصّ الأول بعرض نماذج من الأسر العلمية الدمشقية التي توارث شيوخها وظيفة الحسبة في دمشق، وهذه الاسر هي اسرة الاشراف بنو ابي الجن الحسينية، واسرة بني الشيرجي، واسرة الصفي البصروي، واسرة الشيخ المحتسب عبد اللطيف السلمي، واسرة ابن العفيف الآمدي، واسرة الشيخ أبو نصر الشيرازي، أمّا المبحث الثاني فقد تناول اسماء الاسر العلمية الدمشقية التي توارث شيوخها وظيفة وكالة بيت المال بدمشق وهي: اسرة ابن شمر نوح الزرعي، واسرة بني الشهاب الحلبي، واسرة بني ابي الطيب النهاوندي، واسرة ابن القلانسي، في حين سلّط المبحث الثالث الأضواء على الاسر العلمية الدمشقية التي توارث علماؤها وظائف النظر، إذ قُسم هذا المبحث إلى تسعة مطالب ،كل واحدٍ منها اختصّ بعرض أحدى وظائف النظر وهن وظيفة نظر الدولة، ووظيفة نظر الديوان الخاص، ونظر الجيش، ونظر الأوقاف (الأحباس)، ونظر ديوان

الاسرى، ونظر المدرسة، ونظر الخزانة، ونظر الجامع الاموي، ثمّ نظر الايتام، ثمّ عرض خلال هذه المطالب أهم الاسر العلمية الدمشقية التي توارثت وظائف النظر المشار إليها، ومن هذه الاسر العلمية التي عرضت في المبحث الثالث اسرة ابن عصرون الحديثي، واسرة بني قاضي عجلون، واسرة ابن الكشك الاذرعي، واسرة ابن نوح المقدسي، واسرة ابن النحّاس الأسدي، واسرة بني الزكي القرشي، واسرة ابن هلال الأزدي وغيرها، وقدّ جرى ترتيب عرض هذه الاسر في المباحث والمطالب هجائياً استناداً إلى اسم الاسرة الذي اشتهرت به، ثمّ اختتمت الدراسة بالنتائج التي خرجت بها.

المبحث الأول: وظيفة الحسبة وتوارثها:

وظيفة رفيعة الشأن، يرتبط عمل متولّيها بالأسواق، والمعاملات التجارية فيها، وهي من الوظائف التي يمكن أن تندرج ضمن قائمة وظائف الإدارة المالية ؛لأنه من مهام صاحبها مراقبة أسعار السلع التجارية، والعمل على تثبيتها والحيلولة دون تلاعب التجّار بها (القلقشندي، د.ت، ١٢/ ٥٩، ٦٠ – ٦٢)، (Al-Qalqashandi، ١٢/٥٩، ٦٠-٦٢)، فضلاً عن دوره في متابعة سوق العملة النقدية، أي مراقبة قيمتها التداولية بين الناس، وضمان حفاظها على القيمة المقرّة لكل عملة، فضلاً عن دوره الرقابي في منع انتشار المسكوكات النقدية المغشوشة داخل السوق (المقريزي ، ١٩٩٧م، ٤/ ٨٠، ٦/ ٢٧٩، ٣٩٦)، (Al-Maqrizi, 1997 AD، ٤/٨٠، ٦/٢٧٩، ٣٩٦) ويُعيّن نائب السلطان بدمشق صاحب هذه الوظيفة، وأمّا مجلسه فخارج دار العدل خلاف المحتسب في القاهرة، فإن مجلسه يكون داخل دار العدل، ولمحتسب دمشق الولاية على جميع محتسبي أعمالها كالقدس، وغزة، والرملة، ونابلس، وعجلون، واذرعات وغيرها (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٢٠٠)، (Al-Qalqashand، ٤/٢٠٠) ولعظيم شأن هذه الوظيفة أوكلت السلطة الحاكمة لدمشق مهمّتها لخيرة العلماء فيها، الذين لديهم الإلمام في مجال الإدارة المالية، وللمكانة المرموقة التي كانت تتمتّع بها هذه الوظيفة داخل المجتمع حرص هؤلاء العلماء على الابقاء عليها داخل اسرهم، وإن حصل وذهب منصبها خارج الأسرة سعوا إلى أعادتها إليهم وكأنها أضحت من ضمن موروثات عوائلهم، فمن الأسر الدمشقية التي توارث علماؤها منصب محتسب دمشق:

أولاً: اسرة الاشراف بنو أبي الجن الحسينية:

من الأسر العلمية الإدارية عظيمة القدر في دمشق، أصلها من مدينة قم (ابن العديم، د.ت، ٥/ ٢٤١٥)، (Ibn al-Adim، ٥/٢٤١٥)، اعتلى شيوخها أجل المناصب الدينية والإدارية في دمشق كالقضاء، ونقابة الاشراف، وكتابة السر فضلاً عن وظائف الإدارة المالية ومنها وظيفة الحسبة لما كانوا يتمتّعون به من كفاءة وخبرة في هذا المجال (عواد،

٢٠٢٠م، ص ٢٧٥)، (Awad, 2020 AD, p٢٧٥) فمن أشرافها الذين تولّوا وظيفة الحسبة الشريف المحدّث برهان الدين إبراهيم بن عدنان بن ابي الجن الحسيني الدمشقي (ت٧٧٧هـ)، كان نبيلاً من رؤساء الدماشقة، أُوكلت له وظيفة نقابة الاشراف، فضلاً عن وظيفة الحسبة في دمشق، امتدح سيرته في وظيفتيه المؤرّخ ابن حجر العسقلاني قائلاً: (("ولّي نقابة الأشراف والحسبة وكان رئيساً نبيلاً مشكور السيرة")) (١٩٧٢م ، ١/ ٤٤)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 AD، ٤٤/١) وتولّى أيضاً وظيفة الحسبة في دمشق الشريف عماد الدين ابو بكر بن علي بن ابي الجن الحسيني الدمشقي (ت٨٣٣هـ)، أشهر أشراف هذه الأسرة الجليلة، اثنى عليه السخاوي قائلاً: (("وكان الغالب عليه الديانة والخير والعفّة، ولذا انطلقت الألسن بالثناء عليه")) (د.ت، ١١/ ٥٠)، (Al-Sakhawi، ٥٠/١١)، اشتهر بعلوم الحديث الشريف، والفقه، والنحو، والانشاء، وتصدّر لمهنة التدريس في العديد من مدارس دمشق كالمدرسة العذراوية، والجقمقية، والريحانية، والمقدّمية، أمّا دوره في الحياة الإدارية فإنه تولّى وظيفة الحسبة في دمشق، فضلاً عن تولّيه وظيفة كتابة السّر في مصر (السخاوي، د.ت، ١١/ ٥٠)، (Al-Sakhawi، ٥٠/١١)، وهنا لابد من وقفة عند وظيفته التي تولّاها في مصر، لبيان إصرار السلطة الحاكمة آنذاك إلى تولّي علماء هذه الاسرة الوظائف المهمّة في الدولة، إذ كان للشريف عماد الدين أخ يُدعى الشريف شهاب الدين أحمد بن علي بن ابي الجن الحسيني الدمشقي (ت٨٣٣هـ)، تولّى وظيفة كتابة السر، ونظر الجيش، وقضاء القضاة الشافعية بدمشق، فاستدعاه السلطان المملوكي الاشرف سيف الدين أبو النصر برسباي بن عبد الله الدّقماقي (ت٨٤١هـ) (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٩/ ٣٤٧)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٣٤٧/٩) بشكل خاص إلى مصر ليكلّفه بمنصب كتابة السر فيها، وشاءت قدرة الله Y ان يتوفى الشريف شهاب الدين بالطاعون، فأوكل السلطان برسباي كتابة السر لأخيه الشريف عماد الدين أبو بكر، وهذه المرّة لم يرث علماء هذه الاسرة وظائف الادارة المالية في دمشق فحسب بل ورثوا وظيفة كتابة السر في مصر أيضاً (ابن تغري بردي، د. ت، ١/ ٤٠٦)، (Ibn Taghri Bardi، ١/٤٠٦)، وهي ثقة عالية من السلطة بهذه الاسرة التي تمتلك المهارات المتعدّدة في فن الإدارة على اختلاف وظائفها.

ثانياً: أسرة بني الشيرجي:

أسرة علمية إدارية دمشقيّة الأصل، قال عنها الذهبي: ((بيت عدالة وكتابة وتقدُّم)) (٢٠٠٣م، ١٤/ ٥١٣)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٥١٣/١٤) والشيرجي نسبة لبيع الشيرج أي دهن السمسم (ابن العجمي، ٢٠١١م، ص: ١٥٨)، (Ibn Al-Ajmi, 2011 AD, p ١٥٨.) تولّى علماؤها أجل الوظائف الدينية والعلمية في دمشق، فضلاً عن

وظائف الإدارة المالية وعلى رأسها وظيفة الحسبة، منهم الشيخ المحدّث نجم الدين أبو غالب مظفّر بن محمد بن الشيرجي الأنصاري الدمشقي (ت٦٥٧هـ)، مدرّس المدرسة العصرونية بدمشق، كان صاحب دين وعلم وأمانة، لذلك اسندت له السلطة الدمشقية وظيفة الحسبة لرفيع قدره (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٤/ ٨٦٨)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٦٨/١٤) ثمّ ورث عنه الوظيفة بنه الشيخ المحدّث عز الدين ابو البركات عيسى بن المظفر بن الشيرجي الانصاري الدمشقي (ت٦٨٢هـ)، أجل شيوخ هذه الاسرة أثنى عليه اليونيني قائلاً: (("كان من أعيان أهل دمشق، ورؤسائهم، وعدولهم، وُلّي المناصب المهمّة، وآخرها حسبة دمشق، وكان عنده مكارم، وحسن ملتقى، وعلو همّة")) (١٩٩٢م، ٤/ ١٩٥)، (Al-Yunani, 1992 AD، ١٩٥/٤) إذن نلاحظ من هذا النص مدى المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها العز بن الشيرجي فضلاً عن نزاهته وعدله لذلك وُلّي أجل الوظائف بدمشق ومنها وظيفة الحسبة؛ ثمّ ورث عنه ابنه الشيخ شرف الدين أبو الفتح أحمد بن عيسى بن الشيرجي الدمشقي (ت٧٢٦هـ) وظيفة الحسبة لذات المكانة التي تمتّع بها والده المذكور آنفاً (المقريزي، ١٩٩٧م، ٣/ ٩٣)، (Al-Maqrizi, 1997 AD، ٩٣/٣) ومن علماء هذا البيت الذين تولّوا منصب محتسب دمشق أيضاً الشيخ المحدّث عماد الدين ابو عبد الله محمد بن موسى بن الشيرجي الدمشقي (ت٧٧٠هـ)، من أعلام المحدّثين في دمشق، نال استحسان الخواص والعوام فيها عند تولّيه وظيفة الحسبة لنزاهته وعفّته منهم الشيخ ابن حجر العسقلاني الذي أكد ذلك بالقول: (("وكان قد وُلّي نظر الخزانة والحسبة الشامية وغير ذلك، وكان مشكوراً في مباشرته عفيفاً نزهاً")) (١٩٧٢م ، ٦/ ٢٢)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 AD، ٢٢/٦). وهكذا نلاحظ تولّي أربعة من علماء هذه الاسرة وظيفة الحسبة بدمشق لمكانتهم العلمية والإدارية التي كانوا يحظون بها آنذاك.

ثالثاً: أسرة الصفي البصروي:

اسرة علمية دمشقية أصلها من مدينة بصرى، أنجبت خيرة المحدّثين والفقهاء، الذين كانت لهم بصمة وضاءة في مجال الإدارة (القرشي، د . ت، ١/ ٣٦٩)، (Al-Qurashi، ٣٦٩/١) إذ تولّوا أجل المناصب الدينية والإدارية في دمشق كمنصب القضاء والوزارة (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٨/ ١١١)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ١١/٨) فضلاً عن وظيفة الحسبة، فمن شيوخ هذه الأسرة الذين تولّوا هذه الوظيفة الشيخ القاضي فخر الدين سليمان بن عثمان بن الصفي البصروي الدمشقي (ت٧١٤هـ)، كان شاباً كريماً طيّب الأخلاق (الصفدي، ١٩٩٨م، ٢/ ٤٤٨)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٤٤٨/٢) إذ تسلم الوظيفة بعد أن تنازل له عنها أخوه الشيخ الفقيه نجم الدين محمد بن عثمان بن الصفي البصروي الدمشقي (ت٧٢٣هـ) (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ٥/ ٢٩٧)، (Ibn Hajar

Al-Asqalani, 1972 A.D.، ٢٩٧/٥) وكان سبب تنازل الأخير عن وظيفة الحسبة لأخيه هو تقليده منصب الوزارة في دمشق (الصفدي، ١٩٩٨م، ٢/ ٤٤٨، ٤/ ٥٦٠، ٥٦١)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٤٤٨/٢، ٥٦٠/٤، ٥٦١) أي جرت ترقيته في عمله من خلال اسناده بمنصب إداري أعلى، وذلك دليلاً على نجاح الشيخ نجم الدين في إدارة الوظيفة السابقة وهي الحسبة فجرى تكريمه بمنصب أعلى، وهنا لابد من الاشارة إلى أن الشيخ نجم الدين محمد بن عثمان كان من المقرّبين جدّاً لدى السلطان المملوكي السلطان أبو الفتح ناصر الدين محمد بن المنصور قلاوون الصالحي (ت٧٤١هـ) (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٨/ ٢٣٣)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٢٣٣/٨)، إذ أوصى الأخير الامراء في دمشق بإيكال الوظائف المهمّة للنجم فيها، ونُفذت وصيّته إذ ترقّى بالوظائف مبتدئاً بالحسبة، ثمّ نظر الخزانة، ثمّ الوزارة، ثمّ الامارة، وهو خير دليل على رعاية السلطة الحاكمة آنذاك لعلماء هذه الاسرة الدمشقيّة، وفي ذلك يقول الصفدي:((وسعى له في الباطن مع أمراء دمشق بملطفات إلى أن انبرم له الأمر، وصار لهباً ذلك الجمر، فرعى له حقه، وملكه من السؤدد رقه، فولي الحسبة، ثم نظر الخزانة، ثم الوزارة، وانتقل بعد ذلك إلى الإمارة)) (١٩٩٨م، ٤/ ٥٦٠)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٥٦٠/٤)، نفهم من هذا النص جملة أمور منها انّ الوظائف الإدارية في دمشق كانت محط تنافس بين العلماء، فيحظى بها من تدعمه السلطة الحاكمة، ممّا دفع السلطان الناصر إلى توجيه الامراء سرّاً أن يسندوا الوظائف الحسّاسة بالاسم للشيخ النجم البصروي لكفاءته وخبرته؛ كما تولّى وظيفة الحسبة أيضاً أخوهم الثالث فخر الدين أحمد بن عثمان بن الصفي البصروي الدمشقي (ت٧٢٣هـ) (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م، ١/ ٢٣٧)، (Ibn Hajar al-Asqalani, 1972 AD، ٢٣٧/١) ومن ثم تبيّن توارث الأخوة الثلاث لمنصب الحسبة في دمشق حرصاً منهم على بقائه بينهم، وبمباركة السلطة الحاكمة آنذاك على ذلك.

رابعاً: اسرة الشيخ المحتسب عبد اللطيف السلمي:

من البيوتات العلمية المعروفة بدمشق، ساهم علماؤه في دعم الحياة الإداريّة من خلال توارث بعضهم منصب الحسبة بدمشق لخبرتهم في هذا المجال، منهم الشيخ أبو القاسم عبد اللطيف بن محمد السلمي الدمشقي المعروف بالمحتسب نسبة لوظيفته، توفي في أواخر القرن السادس الهجري (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٤/ ١٥٩)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٥٩/١٤) ثمّ تولّى بعده ابنه الشيخ المحدّث فخر الدين أبو الثناء محمود بن المحتسب عبد اللطيف السلمي الدمشقي (ت٦٣٤هـ)، أثنى عليه تلميذه ابن الصابوني قائلاً: ((وهو من بيت مشهور بالعدالة والرئاسة، تولّى الحسبة بدمشق مدّة، وحسنت ولايته وحُمدت طريقته وكذلك والده من قبل")) (د.ت، ص: ٨٠)،(Ibn Al-Sabouni, p. ٨٠) أي أنّه نال

استحسان السلطة والأهالي في أثناء تولّيه وظيفة الحسبة لحسن إدارته لها، وكذلك الحال فيما تعلق بوالده من قبله؛ ثمّ تولّى بعده وظيفة الحسبة في دمشق ابنه الشيخ المحدّث تاج الدّين أبو المجد أيّوب بن محمود السلمي الدمشقي (ت٦٦١هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٣٦)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٣٦/١٥).

خامساً: اسرة ابن العفيف الآمدي:

أسرة علمية دمشقية عالية الشأن أصلها من مدينة آمد في ديار بكر (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ١/ ١٧)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 AD، ١٧/١) برز منها أشهر المحدّثين، ورجال الإدارة الذين ساهموا في دعم الحياة الإدارية في دمشق من خلال تقلّد علماؤها وتوارثهم وظائف الإدارة المالية ومنها وظيفة الحسبة، إذ تقلّدها الشيخ المحدّث بدر الدين احمد بن إسحاق بن العفيف الآمدي الدمشقي (ت٧٦٤هـ)، الذي تميّز بنبل الأخلاق فكان ليّن الكلمة محبّاً لأهل الخير، لذلك حُمدت سيرته في هذه الوظيفة (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ١/ ١١٧)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 A.D.، ١١٧/١) ثمّ تقلّد بعده وظيفة الحسبة في دمشق أخوه الشيخ المحدّث القاضي برهان الدين إبراهيم بن إسحاق بن العفيف الآمدي الدمشقي (ت٧٧٨هـ)، أشهر محدّثي عصره (ابن تغري بردي، د. ت، ١/ ٥١)، (Ibn Taghri Bardi، ١/٥١) .

سادساً: أسرة الشيخ أبو نصر الشيرازي:

من كبريات الأسر العلمية الدمشقية، أصلها من شيراز في بلاد المشرق الإسلامي (الصفدي، ٢٠٠٠م، ٥/ ١٠٤)، (Al-Safadi, 2000 AD، ١٠٤/٥) قال عنها الذهبي: (("بيت الرواية والعلم والرياسة والنبل")) (٢٠٠٣م، ١٥/ ٢٦٣)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٢٦٣/١٥) إذ أنجبت علماءً اجلاء اشتهروا بعلوم الحديث الشريف والفقه، كما تصدّروا للتدريس في أشهر مدارس دمشق، و تبوأوا أهم المناصب الدينية كالقضاء، فضلاً عن وظائف الإدارة المالية ومنها وظيفة الحسبة، إذ تقلّدها الشيخ المحدّث القاضي تاج الدين أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي نصر الشيرازي الدمشقي (ت٧١٢هـ)، كان من رؤساء دمشق، صاحب نبل وحشمة وفضل ومروءة (الصفدي، ١٩٩٨م، ٥/ ١٤٧ – ١٤٨)، (Al-Safadi, 1998AD، ١٤٧/٥-١٤٨) ومن شيوخ هذا البيت الذين تولّوا منصب الحسبة حفيده الشيخ عماد الدين محمد بن أحمد بن أبي نصر الشيرازي الدمشقي (ت٧٤٩هـ)، اشتهر بعلم الحديث الشريف، وكان من خصاله الشهامة (الذهبي، ١٩٩٨م، ٤/ ١٥١)، (Al-Dhahabi, 1998 AD، ١٥١/٤).

وهكذا تبيّن لنا حرص شيوخ بيوتات دمشق العلمية على توارث وظيفة الحسبة في دمشق، إذ انتقلت من الأب إلى الأبن أو الأخ أو الحفيد.

المبحث الثاني: وظيفة وكالة بيت المال وتوارثها:

من أهم وظائف الإدارة المالية عرّفها القلقشندي قائلاً: (("وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر، وموضوعها التحدّث فيما يتعلّق بمبيعات بيت المال ومشترياته ... ولا يليها إلّا أهل العلم والديانة، ومجلسه بدار العدل، تارة يكون دون المحتسب، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه")) (د.ت، ٤/ ٣٧ – ٣٨)، (Al-Qalqashandi، ٤/ ٣٧-٣٨) وهذا شأن متولّيها في القاهرة، ونلاحظ أن القلقشندي في تعريفه المذكور آنفا بيّن الترابط بنوع العمل الوظيفي بين الحسبة ووكالة بيت المال لعلاقتهما بالإدارة المالية للبلد، كما أشار إلى التنافس بينهما في بلوغ الأهمية بحسب شخصيّة من يتقلّدها، ومكانة وظيفته في نفسه؛ أمّا وظيفة وكالة بيت المال في دمشق فقدرها عظيم أيضاً كما هو حالها في مصر، وولايتها تكون بتوقيع شريف من السلطان لا نائبه، كونه المؤتمن على أموال الناس، ولكن لا مجلس لمتقلّدها في دار العدل خلاف وكيل بيت المال في مصر فمجلسه يكون داخل دار العدل في القاهرة (القلقشندي، د.ت، ٤/ ١٩٩)، (Al-Qalqashandi، ١٩٩/٤) ومن الشروط التي يجب توافرها في المرشّح لهذه الوظيفة، الأمانة، والعفّة، والديانة، والعلم، والّا يكون ممّن تدور حوله الشبهات والشكوك، أمّا مهامه فهي الإشراف على أموال بيت المال من مشتريات ومبيعات مهما اختلفت أصنافها (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٣٢، ٣٨، ١٩٨، ٥/ ٤٣٧، ١٢/ ٦٣ – ٦٩)، (Al-Qalqashandi, D. T..، ٣٢/٤، ٣٨، ١٩٨، ٥/ ٤٣٧، ١٢/ ٦٣ – ٦٩) إن كانت أموالاً منقولة أو غير منقولة، وإليه ترجع قرارات بيع هذه الأموال بعد النظر في جدواها، فإن كانت تصب في المصلحة العامة يبيع، أمّا إذا كانت تضر بالمصلحة العامة يرفض بيعها (السبكي، ١٩٨٦م، ص ٦٥)، (Al-Subki, 1986 AD, p. ٦٥) وعليه فقد حرصت السلطة الحاكمة في دمشق على إسناد هذه الوظيفة للأشخاص الذين يتمتعون بالصفات التي تؤهلهم لها، فمن الأسر العلمية الإدارية الدمشقية التي توارث علماؤها وظيفة وكالة بيت المال:

أولاً: أسرة ابن شمر نوح الزرعي:

من الأسر العلمية الدمشقية أصلها من بلد زرع أحد أعمال دمشق (ابن حجر العسقلاني، ١٩٨٦م،١/ ٢٢٩)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1986 AD، ٢٢٩/١) تقلّد شيوخها المناصب في دمشق ومنها وكالة بيت المال ،إذ تولّاها الشيخ علاء الدين علي بن عثمان بن شمر نوح الزرعي الدمشقي (ت٧٧٦هـ)، أشهر أعلام هذه الأسرة، تقلّد أرفع المناصب الإدارية منها كتابة السّر بدمشق كونه يمتلك خطّاً جميلاً وسرعة في الكتابة، ولنزاهته وعدله أُسند إليه قضاء حلب لمرتين، ولبراعته في الإدارة المالية أوكلوا له منصب وكالة بيت المال بدمشق، ولشديد كرمه وبسطه يده كل البسط افتقر في آخر حياته، كما

تعانى الشعر وكتبه، فمنه (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٨/ ٤١٨، ٤١٩)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٤١٨/٨، ٤١٩):

"وماء وجهك خير السّلعتين فلا" "تبعه بخسا ولو باليوسفيّات"

"فكلّ ما كان مقدوراً ستبلغه" "وكلّ آت على رغم العدى آت"

وتولّى بعده وظيفة وكالة بيت المال بدمشق ابن أخيه الشيخ جلال الدين أبو المعالي محمد بن محمد بن عثمان بن شمر نوح الزرعي الدمشقي (ت٧٨٢هـ) من مآثره كان بهيّ الوجه قليل الكلام، له دراية جيّدة بأحكام الشريعة الإسلامية، تولّى قضاء حلب، ثمّ عاد إلى دمشق ليتولّى فيها قضاء العسكر وتدريس الاقبالية، فضلاً عن تولّيه وظيفة وكالة بيت المال فيها (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ١٢٢- ١٢٣)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ١/١٢٢-١٢٣).

ثانياً: أسرة بني الشهاب الحلبي:

من الأسر العلمية الإدارية الشهيرة في دمشق، أصلها من حلب (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٨/ ٥٤١)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٥٤١/٨) أنجبت كبار العلماء الذين ساهموا في دعم الحركة العلمية لغزارة نتاجهم في هذا المجال، كما رفدت أروقة الإدارة في مصر والشام ،ومنها دمشق بخيرة الإداريين الأكفاء، إذ تقلّد شيوخها أنبل الوظائف الدينية والإدارية كالقضاء وكتابة ديوان الإنشاء إلى جانب وظائف الإدارة المالية كوظيفة وكالة بيت المال بدمشق ،منهم الشيخ الأديب شرف الدين أبو بكر بن محمد بن الشهاب الحلبي الدمشقي (ت٧٤٤هـ)، حظي باحترام ومحبّة السلطان المملوكي الناصر شهاب الدين أحمد بن محمد بن قلاوون (ت٧٤٥هـ) (ابن تغري بردي، د. ت، ٢/ ١٥٨)، (Ibn Taghri Bardi، ١/١٥٨)، وكذلك نائبه في دمشق الامير سيف الدين تنكز بن عبد الله الناصري (ت٧٤١هـ) (الصفدي، ١٩٩٨م، ٢/ ١١٦)، (Al-Safadi, 1998 AD، ١١٦/٢)، ففي بداية حياته الإدارية أمر السلطان الناصر أحمد نائبه سيف الدين تنكز أن يولّي الشرف أبو بكر كتابة السّر في دمشق، ويجلسه أمامه في دار العدل، فكان هو أول كاتب سر يجلس بدار العدل في دمشق تقديراً له من السلطنة، واعتاد شرف الدين أبو بكر مرافقة الامير تنكز عندما يذهب إلى مصر، فيجلسه السلطان الناصر أمامه ويقول لحاشيته مادحاً ايّاه: هذا شرف الدين كأنه وُلد موقّعاً، فيخلع عليه ويهب له العطايا، ثمّ استدعاه السلطان بعد مدّة ليكون كاتباً للسّر في مصر، فبقي هناك ثمانية أشهر، وأيضاً كان يرافق السلطان في رحلاته، ثمّ التمس من الاخير العودة إلى مدينته دمشق فوافق على طلبه، فعندما دخل ابو بكر المدينة سُرّ الامير تنكز بعودته وعانقه قائلاً له: مرحباً بمن نحبّه ويحبنا، ثمّ حصل بعد ذلك خلاف بينه وبين تنكز كان نتيجته ان عُزل من منصبه مدّة،

فأمر السلطان نائبه تنكز أمّا ان يعيده في منصبه أو يرسله إليه الى مصر لتولّي كتابة السر فيها، أو يخصّص له راتباً يكفيه، فأجرى له مرتباً قدره (٣٠٠) درهماً، وبعد تولّي السلطان الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون المملوكي (ت٧٤٦هـ) (الصفدي، ١٩٩٨م، ٢/ ٤٢٥)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٤٢٥/٢) أخو السلطان الناصر أحمد، هو الآخر كان يكن المحبّة والتقدير للشيخ شرف الدين أبي بكر فولّاه وكالة بيت المال بدمشق (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٠/ ١٦٢ - ١٦٣)،(Al-Safadi, 2000 AD ، ١٠/١٦٢-١٦٣)، وهذا أفصح شاهد على تعظيم السلطة الحاكمة للشيخ الشرف محور عرضنا الذي اهتم أيضاً بالشعر فكتب الكثير من الأبيات، منها وصف حنينه وشوقه لبلده عندما كان في مصر قائلاً (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٠/ ١٦٥)، (Al-Safadi, 2000 AD، ١٠/١٦٥):

"وَالله قد حرت فِي حَالي وَفِي عَمَلي" "وضاق عَمَّا أرجي مِنْكُم أملي"

"أَبيت والشوق يذكي فِي الْفُؤَاد لظى" "نَار تؤجج فِي الأحشاء ذِي شعل"

ثمّ تولّى بعده ابن أخيه وظيفة وكالة بيت المال في دمشق الشيخ الأديب بدر الدين محمد بن موسى بن محمد بن الشهاب الحلبي الدمشقي (ت٨١١هـ)، كان كريم النفس، صاحب مروءة وذكاء، تنقّل بين العديد من الوظائف الإدارية كتوقيع الدست في حلب، وكتابة السّر في طرابلس، وكذلك كتابة السّر في دمشق فضلاً عن تورّثه عن جدّه وظيفة وكالة بيت المال، واشتهر أيضاً بكتابة الشعر فقال (السخاوي، د.ت، ١٠/ ٦٣)، (Al-Sakhawi، ٦٣/١٠):

"بنفسي من يَصح بِهِ غرامي" "ومنشؤه من الحدق المراض"

"لَهُ لفظ وأخلاق وَخلق" "رياض فِي رياض فِي رياض"

ثالثاً: أسرة بني أبي الطيب النهاوندي:

أسرة علميّة كبيرة في دمشق، أصلها من بلد نهاوند في بلاد الجبل (السخاوي، د.ت، ٨/ ٢٦٢)، (Al-Sakhawi، ٢٦٢/٨) ساهم رجالها في دعم ازدهار الحركة العلمية في مجال الحديث الشريف، فضلاً عن دورهم الكبير في دعم النظام الإداري في دمشق، فكان منهم القضاة، وكتّاب السّر، وموقّعو الدست، إلى جانب تولّيهم وظيفة وكالة بيت المال منهم الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن هبة الله بن أبي الطيب العجلي النهاوندي الدمشقي (ت٧٠٤هـ)، قال عنه الصفدي: ((كان نجم الدين ذا مروءة وافرة، وأخلاق على المكارم متضافرة، واختص بمنادمة الأمير عز الدين أيبك الحموي نائب قلعة دمشق، ومجالسته، وتألف ذاك بمحادثته ومؤانسته ... ومضت أوقاته بخير في أيام الأفرم)) (١٩٩٨م، ٣/ ٦٤٨)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٦٤٨/٣)، أي حظي النجم بالقبول الوافر لدى نواب

السلطنة في دمشق وهم الأمير عز الدين أيبك الحموي (ت٧٠٣هـ) (الصفدي، ١٩٩٨م،٦٤٣/١)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٦٤٣/١)، الذي كان يأنس بجلوس الشيخ النجم عنده والسماع لحديثه، وكذلك الامير جمال الدين آقوش الأفرم (ت٧١٦هـ) (المقريزي، ١٩٩٧م، ٥١٩/٢)، (Al-Maqrizi, 1997 AD، ٥١٩/٢)، ومن ثم نال ثقتهم وقربهم ورعايتهم، أمّا دوره في الحياة العلمية فإنه درّس في المدرستين الكروسية والصلاحية بدمشق (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ٥/ ٣٨٤)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 A.D.، ٣٨٤/٥)؛ ثمّ ورث عنه منصب وكالة بيت المال ابنه الشيخ المحدّث نجم الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي الطيب العجلي النهاوندي الدمشقي (ت٧٤٢هـ)، وكذلك تدريس المدرستين الكروسية والصلاحية، ومن سجاياه أنه كان حسن الشكل، عديم الشر، قوالاً للحق، تام الخلق، وكانت لديه معلومات جيّدة بتراجم رجال عصره ووقائعهم (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ٥/ ٣٨٤)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 A.D.، ٣٨٤/٥).

رابعاً: أسرة ابن القلانسي:

أشهر بيوتات العلم والإدارة في دمشق بلا منازع، تصدّى شيوخه للتدريس في الكثير من المدارس الدمشقية، ولنزاهتهم وكفاءتهم وخبرتهم في مجال الإدارة حظوا بالقبول المطلق من السلطة الحاكمة آنذاك، حيث اسندت إليهم ارفع الوظائف منها القضاء، والوزارة، وكتابة ديوان الانشاء، إلى جانب وكالة بيت المال، إذ تولّاها الشيخ المحدّث الفقيه قاضي القضاة جمال الدّين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن القلانسي الدمشقي (ت٧٣١هـ)، ناظر ومدرّس المدرسة الظاهرية الجوانية، ومدرّس العصرونية والأمينية، كما تولّى وظيفتي وكالة بيت المال وقضاء العسكر في دمشق، وقد أثنى عليه ابن قاضي شهبة قائلاً: ((تقدّم بطلب العلم والرئاسة، وباشر جهات كبار، ودرّس في أماكن، وتفرّد في وقته بالرئاسة في البيت والمناصب الدينية والدنيوية، وكان فيه تواضع وحسن سمت وسؤدد وإحسان وبرّ بأهل العلم والصلحاء")) (١٩٨٦م، ٢/ ٢٥٢)، (Ibn Qazi Shahba, 1986 AD، ٢٥٢/٢)؛ ثمّ جاء بعده أخوه الشيخ الفقيه الأديب القاضي علاء الدين ابو الحسن علي بن محمد بن القلانسي الدمشقي (ت٧٣٦هـ)، وفي ترجمة الصفدي لسيرة حياته أكّد على شيوع ظاهرة التوارث الوظيفي لوظائف الإدارة المالية في دمشق آنذاك قائلاً: ((فلمّا مات أخوه جمال الدين أخذ وظائفه نظر الظاهرية ودرسها، ودرس العصرونية، ووكالة بيت المال، وقضاء العسكر مضافاً إلى ما بيده، وتدريس الأمينية، فأعطى ابن أخيه القاضي أمين الدين نظر الظاهرية وتدريس العصرونية وانفرد هو بالباقي)) (٢٠٠٠م، ٢٢/ ٨٨)، (Al-Safadi, 2000 AD، ٨٨/٢٢)، نلاحظ من النص المذكور آنفا أن علاء الدين ورث بعد وفاة أخيه

الجمال كل تداريسه ووظائفه، وقام هو بدوره بتوريث ابن أخيه الشيخ المحدّث الأديب أمين الدين محمد بن جمال الدين أحمد بن القلانسي الدمشقي (ت٧٦٣هـ) (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ٥/ ٩٦)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 A.D.، ٩٦/٥) وظيفة نظر الظاهرية، وتدريس العصرونية؛ وبعد وفاة الاول ورث أمين الدين محمد المذكور آنفا وظيفتي وكالة بيت المال وقضاء العسكر بدمشق (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ٥/ ٩٦)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 A.D.، ٩٦/٥)، وبذلك عادت وظائف والده إليه عن طريق عمّه، كما أتّضح لنا جليّاً توارث هذه الاسرة وظائف عدة في دمشق إلى جانب وظائف الإدارة المالية.

المبحث الثالث: وظيفة النظر وتوارثها:

أولاً: التعريف بوظيفة النظر:

من أهم وظائف الإدارة المالية التي يتكوّن منها النظام الإداري في دمشق، وتسميتها مأخوذة إمّا من النظر أي نظر العين، لأن صاحبها يدير شؤون مؤسسته على وفق ما ينظر فيه، أو من النظر أي بمعنى الفكر لأنه يفكّر لما فيه من مصلحة في ذلك، فهي وظيفة من ينظر في اموال المؤسسة التي يديرها، فيتولّى الإشراف على ما يرد إليها من إيرادات، وما يصدر عنها من نفقات بعد تحديد جهات صرفها، وقد يتولّى الناظر مهامّاً إدارية اخرى فضلا عن مهمّته المالية الرئيسة، وهذه المهام تختلف باختلاف المؤسّسة التي يُشرف عليها الناظر، لذلك نجد أنّ مهام (ناظر الجيش) تختلف عن مهام (ناظر الديوان الخاصّ)، كما تختلف هي عن واجبات (ناظر المدرسة) وهكذا (القلقشندي، د.ت،(**437 /5** ،Al-) Qalqashandi, 5/437).

وقرارات تعيين الناظر في المؤسسات الادارية بدمشق، تصدر من جهات مختلفة، فإمّا أن يكون قرار التعيين بمرسوم يوقّع من السلطان كما هو الحال في تعيين ناظر الجيش (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٣١)، (Al-Qalqashandi، ٣١/٤) أو يُعيّين من نائب السلطان كما يجري ذلك في تعيين ناظر الخزانة (القلقشندي، د.ت،**197 /4** ،**198** ،(**96 /12** ، Al-Qalqashandi)، ١٩٧/٤، ١٩٨، ٩٦/١٢) أمّا ناظر المدرسة وأوقافها، فإن قرار تعيينه عادة ما يكون من باني أو واقف هذه المدرسة (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ٢٨٩، ٣٥٩(، (Al-Nuaimi, 1990 AD, 1/289, 359).

ومن التنظيمات الإدارية التي تتبع لوظيفة النظر ومتولّيها، في دمشق كان يُعيّن للناظر موظفين مساعدين يعملون تحت يده، وهو يعمل على توزيع المهام الإدارية عليهم، كل حسب مهمّته، مستقلاً بعمله عن نظيره، فمن هؤلاء الموظفين المساعدين له، الكاتب،

والمعين، والناسخ، والشاهد، والعامل وغيرهم (حمد، ١٩٩٧م، ص ١١٢(، (Hamad, 1997, p. 112) .

ثانياً: وظائف النظر للمؤسسات الدينية والإدارية والعسكرية والعلمية في دمشق :

اختلفت المؤسسات التي تولّى الناظر إدارتها في دمشق أيام حكم الدولتين الأيوبية والمملوكية، كمؤسسة الجيش، والأوقاف، والخزانة، وغيرها، ولأجل تمييز ناظر هذه المؤسسة عن ناظر المؤسسة الأخرى، اقتضى الحال أن يقترن اسم الناظر باسم المؤسسة التي يشرف عليها، فصار اسمه (ناظر الدولة)، و(ناظر الجيش)، و(ناظر الاوقاف)، و(ناظر الخزانة)، وهكذا، ولم يقتصر عنوانه على اسم (ناظر) فقط، وكان لكل عنوان صفات ومهام مشتركة بين كل هذه العناوين، فضلاً عن الصفات والمهام غير المشتركة بينها، وهذا ما ستناقشه الدراسة في مبحثها الحالي، فمن هذه العناوين الادارية لوظيفة النظر التي توارثها شيوخ الأسر العلمية الدمشقية:

١. نظر الدولة :

ويعرف متولّيها بناظر الدولة أو ناظر الديوان أو ناظر الدواوين، كما يعرف باسم ناظر النظّار أو ناظر المملكة الشامية، ويُعيّن بمرسوم خاص من السلطان، ويتمتع بمكانة مرموقة في الدولة تعادل مكانة الوزير، وله مجلسه الخاص، وبين يديه حاجب برتبة أمير في الدولة، وتقع على عاتقه أجل المهام، فمن صلاحياته التعيين والعزل، ويقرر في شأن اموال الدولة، ويراقب دخولها وخروجها، ويحاسب عليها، وتُعرض عليه الرواتب (القلقشندي، د.ت، ٤/٢٩، ٣٧، ١٩٥، ٥/٤٣٧، ٤٦٤، ٧/١٧٩، ٨/ ٢١٩، ١١/١١٦، ١١٧، ٣٥٠)، (Al-Qalqashandi، ٤/٢٩، ٣٧، ١٩٥، ٥/٤٣٧، ٤٦٤، ٧/١٧٩، ٨/٢١٩، ١١/١١٦، ١١٧، ٣٥٠) ومن ثم لابد من اختيار الشخص الكفوء لهذه الوظيفة، ممّن يمتلك الميزات، كقوة الشخصية، والملاحظة، والفطنة، والدهاء، الى جانب الالمام في مجال الإدارة المالية، وقد توارث هذه الوظيفة بعض شيوخ الاسر العلمية في دمشق منهم أشراف اسرة بني أبي الجن الحسينية المذكورة آنفا ، إذ تولّى وظيفة نظر الدولة الشريف زين الدّين الحسين بن محمد بن أبي الجن الحسيني الدمشقي (ت٧٠٨هـ)، أبرز أشراف اسرته، وُصف بأنه فارس جلد، ومجادل صلب، تنقّل بين الوظائف الرفيعة، فصوّر الصفدي مكانته وبراعته المتناهية في الإدارة، وقوّة شخصيته في مجلسه قائلاً: (("وتنقّل في المباشرات، وتنقّل بعد الفرض في المعاشرات، ووُلّي نظر حلب، وجلب إليها من السيادة ما جلب، ثم إنه وُلّي نقابة الأشراف بدمشق، ونظر الديوان، وجلس في دسته كأنه كسرى في الإيوان")) (١٩٩٨م، ٢/ ٢٨٩)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٢/٢٨٩)، وكان من خواص نائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش الأفرم فأوكل له نظر ديوانه الخاص، وهنا نلاحظ أن الشريف الزين قد اوكلت له

وظيفة نظر الديوان في دمشق، وكذلك نظر حلب، ونظر ديوان الافرم لخبرته في مجال الإدارة المالية، فضلاً عن تكليفه بوظيفتي نقابة الاشراف وتوقيع الدست في دمشق، وهذا يعكس الثقة الكبيرة به من السلطة الحاكمة آنذاك لتولّيه كل هذه الوظائف المهمّة (الصفدي، ١٩٩٨م، ٢/ ٢٨٨، ٢٨٩)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٢/٢٨٨، ٢٨٩)؛ وبعد وفاة الشريف زين الدين محمد ورث عنه أخوه الشريف أمين الدين جعفر بن محمد بن ابي الجن الحسيني الدمشقي (ت٧١٤هـ) وظيفة نظر الدواوين فضلاً عن وظيفة نقابة الأشراف (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١١/ ١١٨)، (Al-Safadi, 2000 AD، ١١/١١٨) ومن صفاته كان لطيف الهيئة، ذا خلق رفيع، طلق الوجه، ليّن الكلام في خطابه، سمح كريم في عطائه، بارع في فن الكتابة، عالم بالمسائل والإجابة عنها (الصفدي، ١٩٩٨م، ٢/ ١٥٨)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٢/١٥٨).

وهكذا نلاحظ الدور الكبير لأسرة أشراف بني أبي الجن الحسينية في تقلّدهم لوظائف الإدارية المالية وتوارثها، إذ تولّى الشريف زين الدين محمد وابنه الشريف أمين الدين جعفر وظيفة نظر الدواوين، وبعدهم تولّى كل من الشريف برهان الدين إبراهيم، والشريف عماد الدين أبو بكر وظيفة الحسبة كما مرّ بنا ذكره سابقاً، أي جمعوا وتوارثوا عدداً من وظائف الإدارة المالية وليس وظيفة واحدة فقط.

٢. نظر الديوان الخاص:

يدعى صاحبها بناظر الديوان الخاص، أو الناظر الخاص، وتعيينه يصدر بقرار من السلطان، شريطة أن يكون من أهل الديانة، والأمانة، والمعرفة الكافية، وأبرز مهامه التي تسند إليه الاشراف على أموال السلطان أو نائبه، وكان له أتباع كناظر الخزانة، والمستوفي (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٣٠، ١٩٧، ٥/ ٤٣٧، ١٢/ ٣٨٣)، (Al-Qalqashandi، ٤/٣٠، ١٩٧، ٥/٤٣٧، ١٢/٣٨٣) وقد تعلو مكانة الناظر الخاص حتى تصبح بدرجة وزير، كما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، إذ عمل الأخير على إلغاء منصب الوزير، ونقل صلاحياته لناظر ديوانه الخاص منها إصدار أوامر تعيين الموظفين في مؤسسات الدولة بعد مشورة السلطان (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٣٠)، (Al-Qalqashandi، ٤/٣٠)؛ فمن الأسر العلمية التي توارث شيوخها وظيفة نظر الديوان الخاص شيوخ أسرة ابن القلانسي المذكورة آنفا ممثلة بالشيخ عز الدين أبي يعلى حمزة بن أسعد بن القلانسي (ت٧٢٩هـ)، وهو أحد رؤساء دمشق المشهورين، ومن كبار العدول فيها، قرّبه إليه السلطان الناصر محمد بن قلاوون فأوكل إليه نظر ديوانه الخاص، فضلاً عن منصب الوزارة في دمشق (السبكي، ٢٠٠٤م، ص: ١٧٦)، (Al-Subki, 2004 AD, p.: ١٧٦) وبقي العز بن القلانسي في علو وجاهته لدى الدولة حتى وفاته، إذ بيّن ابن كثير ذلك قائلاً: (("وكانت له مكارم على

الخواص والكبار، وله إحسان إلى الفقراء والمحتاجين، ولم يزل معظّماً وجيها عند الدولة من النوّاب والملوك والأمراء وغيرهم إلى أن توفي")) (١٩٨٦م، ١٤/ ١٤٧)، (Ibn Katheer, 1986 AD، ١٤/١٤٧)؛ وكذلك تولّى منهم الشيخ علاء الدين علي بن محمد بن القلانسي المذكور آنفا وظيفة نظر الديوان الخاص للأمير سيف الدين تنكز نائب دمشق (ابن تغري بردي، د. ت، ٤/ ١٥٦)، (Ibn Taghri Bardi، ١٥٦/٤) إلى جانب وظيفة وكالة بيت المال كما مرّ ذكره (الصفدي، ٢٠٠٠م، ٢٢/ ٨٨)، (Al-Safadi, 2000 AD، ٨٨/٢٢)، والوظيفتان يتعلّق عملهما أيضا بالإدارة المالية، وهذا يدل على حرص الدولة على تكليف الشيخ علاء الدين بهذه الوظائف لخبرته في مجال عملها.

٣. نظر الجيش :

وهي من وظائف الإدارة المالية المهمّة جداً في الدولة، يُعيّن صاحبها بمرسوم سلطاني، تقع على عاتقه مسؤوليات كبيرة، منها ما يتعلّق بالجانب المالي وأخرى تتعلّق بالجانب العسكري، وعليه التوفيق بإدارة الجانبين، فمن مهامه متابعة جاهزية الجيش من حيث عدد الأفراد، وقوّة التسليح، ومقدار المؤونة اللازمة له، وهذا كله مثبت في تقارير تُعد بشكل دوري، ومن واجباته أيضاً أن يكون على اطلاع تام بالاحتياجات المالية للجيش، وإدارة القطاعات الخاصة بأفراده، وله مساعدون يعيّنهم نائب السلطان بدمشق وهم صاحب الديوان، والكتّاب، والشهود (القلقشندي، د.ت، ٤/ ١٩٦، ١٩٧، ١٢/ ٩٦ – ٩٨)، (Al-Qalqashandi, D.T.، ١٩٦/٤، ١٩٧، ٩٦/١٢-٩٨)، وقد توارث علماء الاسر العلمية الدمشقية هذه الوظيفة منهم شيوخ اسرة ابن حجّي الحسباني، وهي اسرة علمية دمشقية الأصل، صدحت شهرة علمائها في معظم مدارس دمشق إلى جانب مؤسساتها الإدارية لا سيما التي تختص بأعمال الإدارة المالية ومنها وظيفة نظر الجيش التي توارثها بعض علمائها منهم الشيخ الخطيب بهاء الدين أبي البقاء محمد بن عمر بن حجّي الحسباني الدمشقي (ت٨٥٠هـ)، أشهر رجال دمشق، تولّى الكثير من الوظائف منها تدريس المدرسة الشامية البرانية، والمدرستين الناصريتين البرانية والجوانية، والظاهرية الجوانية، كما تقلّد منصب قاضي القضاة، وكتابة السّر، ونظر العديد من المدارس الدمشقية، فضلاً عن وظيفة نظر الجيش في دمشق ومصر لخبرته في مجال الإدارة المالية (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ٢٢٢ – ٢٢٣، ٣٢٣)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ١/٢٢٢ – ٢٢٣، ٣٢٣)، وقد وصفه السخاوي بعبارات رسمت جميل هيئته ونبيل اخلاقه قائلاً: (("وكان شكلاً جميلاً طوالاً جسيماً طويل اللحية أصهبها أبيض اللون ذا حشمة ورياسة وأصالة وكرم زائد بحيث مات وعليه ما ينيف على عشرين ألف دينار ديناً")) (د.ت، ٨/ ٢٤٣)، (Al-Sakhawi، ٢٤٣/٨)، وعندما توفي الشيخ البهاء محمد حضر جنازته الخواص والعوام على رأسهم

السلطان المملوكي الظاهر أبو سعيد جقمق العلائي (ت٨٥٧هـ) تقديراً لمكانته في نفوسهم آنذاك (السخاوي، د.ت، ٨/ ٢٤٣)، (Al-Sakhawi، ٢٤٣/٨)؛ (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٩/ ٤٢٥)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٤٢٥/٩)؛ ثمّ ورث عنه وظيفة نظر الجيش ابنه الشيخ محيي الدين ونجم الدين أبو زكريّا يحيى بن محمد بن حجّي الحسباني الدمشقي (ت٨٨٨هـ)، إذ بيّن ذلك السخاوي قائلاً: (("واستقر بعد والده فيما كان باسمه من التداريس والأنظار وغيرها")) (د.ت، ١٠/ ٢٥٣)، (Al-Sakhawi، ٢٥٣/١٠)، أي لم يرث عن أبيه وظيفة نظر الجيش فقط بل جميع وظائفه كالتدريس في المدارس ونظر المؤسسات الأخرى، وهو تدليل على شيوع مبدأ التوارث الوظيفي في دمشق آنذاك وبموافقة السلطة الحاكمة، وذلك ثقة منها بشيوخ الاسر العلمية لنزاهتهم وخبرتهم وبراعتهم في مختلف مجالات عملهم ومنها في مجال الإدارة المالية، وهو ما أكّدت عليه نصوص مؤرّخي سيره هؤلاء العلماء، إذ دائماً ما اثنوا عليهم كما مرّ ذكره.

٤. نظر الأوقاف (الأحباس):

الوقف أو الحبس: هو ما خُصّص من عقارات من أشخاص معيّنين، للإنفاق بأموالها على مؤسسة ما، على سبيل البرّ والصدقة، كالإنفاق على المساجد، أو المدارس، أو الرُبط، والزوايا، فيُعيّن على هذه العقارات وأموالها شخص يشرف عليها، يُعرف بناظر الأوقاف او الأحباس (دهمان، ١٩٩٠م، ص١٥٢(،Dahman, 1990 AD, p) . ١٥٢) ووصفها القلقشندي بأنها وظيفة عالية المقدار (د.ت، ٤/ ٣٩)، (Al-Qalqashandi، ٣٩/٤)، ويدور محور عملها في مجال الإدارة المالية، وقد توارثت الاسر العلمية في دمشق هذه الوظيفة منها أسرة بني البارزي، وهي أسرة علمية دمشقية الدار حموية الأصل، أنجبت اعلاماً كبار في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه والأدب وغيرها، كما خرّجت كوكبة من الإداريين الذين كانت لهم زمام الوظائف في دمشق كالقضاء وكتابة السّر فضلاً عن وظائف الإدارة المالية ومنها وظيفة نظر الأوقاف التي توارثها بعض علمائها منهم الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن البارزي الحموي الدمشقي (ت٧٥٥هـ)، قال عنه ابن تغري بردي: (("كان لديه فضيلة، وهو من بيت علم ورئاسة، وتولّى الوزارة بمدينة حماه، وولي نظر الأوقاف بدمشق، وكان مشكور السيرة، كثير التواضع والبر، وله أفضال")) (د. ت، ١/ ٣٥٨)، (Ibn Taghri Bardi، ٣٥٨/١) أي أنّه أدار وظيفته بجدارة وأخلاق فحُمدت سيرته على ذلك (ابن حجر العسقلاني، ١٩٧٢م ، ١/ ٢٠٩)، (Ibn Hajar Al-Asqalani, 1972 AD، ٢٠٩/١)؛ ومن علماء هذه الاسرة الذين تولّوا وظيفة نظر الأوقاف في دمشق الشيخ القاضي شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن البارزي الحموي

الدمشقي (ت٧٥٥هـ)، وهو من رؤساء دمشق وفقهائها الفضلاء (ابن تغري بردي، د. ت، ١/ ٢٠٦ – ٢٠٧) (Ibn Taghri Bardi، ١/٢٠٦-٢٠٧).

٥. نظر ديوان الأسرى:

يكون التعيين في هذه الوظيفة من صلاحيات نائب السلطان بدمشق، ومهمّة صاحبها الإشراف على الأوقاف التي يُخصّص ريعها لافتداء الأسرى، فيعمل على إدارة أموال هذه الأوقاف، ومراقبة إنفاقها للجهة المخصّصة لها (القلقشندي، د.ت، ٤/ ١٩٨، ١٢/ ٣٨٨)، (Al-Qalqashandi, D.T.، ٤/١٩٨، ١٢/٣٨٨)، وقد توارث شيوخ الأسر العلمية في دمشق هذه الوظيفة كاسرة ابن الفويرة وهي عائلة دمشقية الأصل مشهورة بالعلم والجاه والثروة، ومن علمائها الذين تولّوا وظيفة نظر ديوان الأسرى في دمشق الشيخ المحدّث جمال الدين أبو زكريّا يحيى بن محمد بن الفويرة السلمي الدمشقي (ت742هـ)، امتدحه ابن رافع قائلاً: (("كان من بيت معروف بدمشق من أهل الثروة واليسار، حسن الشكل مليح البزّة")) (١٩٨١م، ١/ ٤٠١)، (Ibn Rafi', 1981 AD، ١/٤٠١)؛ ثمّ جاء بعده ابنه الشيخ المحدّث الفقيه الأديب علاء الدين علي بن يحيى بن الفويرة السلمي الدمشقي (ت٧٥٤هـ)، الذي ورث عن أبيه وظيفة نظر ديوان الأسرى في دمشق فضلاً عن تقلّده وظائف اخرى وهي شهادة الخزانة، ووظيفة توقيع الدست التي عُيّن فيها بمرسوم مباشر من السلطان صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون المملوكي (٧٦٠هـ) (الصفدي، ١٩٩٨م، ٣/ ٥٧٦)، (Al-Safadi, 1998AD، ٣/٥٧٦)؛ (المقريزي ، ١٩٩٧م، ٤/٢٤٨)، (Al-Maqrizi, 1997 AD، ٤/٢٤٨).

٦. نظر المدرسة:

هي من وظائف الإدارة المالية القديرة في دمشق، إذ يُشرف صاحبها على إدارة الشؤون المالية للمدرسة التي تكون تحت نظره، منها متابعة توزيع الرواتب على العاملين فيها كالمدرسين، والمعيدين، والمؤذن، والقيّم، والطلبة وغيرهم، ومن مهامه أيضاً توفير كل مستلزمات المدرسة المادّية التي تضمن ديمومة عملها، وتخصيص الأموال اللازمة لشراء هذه المستلزمات من ريع الأوقاف المحبوسة على المدرسة (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ٢٢٨)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ١/٢٨) وتكمن أهمية هذه الوظيفة في الحاجة الماسّة إليها للعدد الكبير من المدارس المنتشرة في دمشق خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، وعادة ما يعين ناظر المدرسة من واقفها ،إذ يجعل نظر مدرسته باسم شيخ معيّن ولذريته من بعده (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ٤٠٨، ٢/ ٨٩)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ١/٤٠٨، ٢/٨٩) وقد توارثت الأسر العلمية في دمشق هذه الوظيفة منها:

أ. أسرة ابن عصرون الحديثي:

أسرة علمية كبيرة في دمشق أصلها من مدينة حديثة غرب العراق (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ٦/ ٤٦٥)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٦/٤٦٥) برز منها كبار المحدثين والفقهاء الذين درّسوا في أشهر المدارس الدمشقية، كما اشتهرت هذه الأسرة بتولّي رجالها أجل الوظائف الدينية كالقضاء، ووظائف الإدارة المالية كالحسبة ووكالة بيت المال فضلاً عن وظيفة نظر المدارس، منهم الشيخ المحدّث شرف الدين أبو عمرو عثمان بن محمد بن أبي عصرون الدمشقي (ت٦٥٨هـ)، كان نبيلًا ذا كرم مفرط حتّى افتقر، ولم يبقَ له من ماله شيئاً سوى مرتّبه الذي يتقاضاه من وظيفة نظر المدرسة النورية بدمشق (اليونيني، ١٩٩٢م، ٢/ ٢٠، ٢٣)،(Al-Yunani, 1992 AD، ٢/٢٠، ٢٣)؛ وورث عنه ابنه الشيخ المحدّث كمال الدين محمد بن عثمان بن أبي عصرون الدمشقي الملقّب بالجنيد (ت٦٦٠هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٤/ ٩٤٢)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٤/٩٤٢) وظيفة نظر المدرسة النورية (اليونيني، ١٩٩٢م، ٢/ ٢٣)، (Al-Yunani, 1992 AD، ٢/٢٣).

ب. أسرة بني قاضي عجلون :

بيت عريق في دمشق أصله من زرع احدى اعمال دمشق، وصفه السيوطي بأنه بيت العلم والرياسة (١٩٢٧م، ص: ٩٤)، (Al-Suyuti, 1927 AD, p. ٩٤) لأنه أنجب العلماء الكبار الذين كرّسوا حياتهم لنقل علومهم الحديثية والفقهية في أشهر المدارس الدمشقية، أمّا وصفه لهذا البيت بانّه بيت الرياسة لارتقاء رجاله أهم المناصب آنذاك وعلى رأسها القضاء، وكتابة السّر، فضلاً عن شهرتهم بتولّي وظائف الإدارة المالية كالنظر ومنها وظيفة نظر المدارس، إذ توارثها بعض شيوخها منهم الشيخ المقرئ الفقيه النحوي الحاسب المصنّف نجم الدّين محمد بن عبد الله بن قاضي عجلون الدمشقي (ت٨٧٦هـ)، أشهر علماء هذه الاسرة، تولّى افتاء دار العدل في القاهرة، وتدريس علوم الفقه في جامع ابن طولون والمدرسة الحجازية في مصر، وعمل خازناً للكتب في المدرسة الباسطية، أمّا في دمشق فقد تولّى تدريس المدرسة العزيزية والشامية الجوانية والأتابكية والظاهرية البرانية والناصرية الجوانية والفلكية و البادرائية والدولعية ومشيخة التصوّف في الخاتونية، فضلاً عن تولّيه وظيفة النظر للمدرسة الركنية (السخاوي، د.ت، ٨/ ٩٥ – ٩٦)، (Al-Sakhawi، ٨/٩٥-٩٦)، وهكذا نلاحظ المكانة العلمية الكبيرة التي تمتّع بها الشيخ نجم الدين محمد مما اهّله للتدريس في كل هذه المدارس، الى جانب خبرته في مجال الادارة المالية ليُكلّف على اثرها بوظيفة نظر المدرسة الركنية.

ثم جاء بعده أخوه الشيخ الفقيه الأديب النحوي المصنّف تقي الدّين أبو بكر بن عبد الله بن قاضي عجلون الدمشقي (ت٩٢٨هـ)، كان إماماً بارعاً في العلوم، وأفقه أهل زمانه، وأجلّ معاصريه وأقرانه، انتهت إليه مشيخة الإسلام، وإمامة الشافعية ببلاد الشام، ونال من السّعد في العلم وكثرة التلاميذ، تولّى التدريس في الجامع الأموي، والمدرسة العمرية، والشامية البرانية في دمشق، فضلاً عن إلقائه الدروس الحافلة في القاهرة (ابن العماد الحنبلي، ١٩٨٦م، ١٠/ ٢١٧)، (Ibn al-Imad al-Hanbali، ١٩٨٦، ٢١٧/١٠)، أمّا دوره في مجال الإدارة المالية فإنّه ورث عن أخيه الشيخ نجم الدين محمد نظر المدرسة الرّكنية الجوانية (النعيمي،١٩٩٠م، ١/ ١٩٩)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ١٩٩/١) وممّا قاله من الشعر (الغزي، ١٩٩٧م، ١/ ١١٨)، (Al-Ghazi, 1997 AD، ١١٨/١):

"لقد كان يفتي في زمان نبينا"	"مع الخلفاء الراشدين أئمة"
"معاذ وعمّار وزيد بن ثابت"	"أبي بن مسعود وعوف حذيفة"
"ومنهم أبو موسى وسلمان حبرهم"	"كذاك أبو الدرداء، وهو تتمة"
"وأفتى بمرآه أبو بكر الرضى"	"وصدّقه فيها وتلك مزية"

ج. أسرة ابن الكشك الأذرعي :

اسرة علمية إدارية دمشقية، أصلها من أذرعات إحدى اعمال دمشق (السخاوي، د.ت، ٢/ ٤)، (Al-Sakhawi, D.T.، ٤/٢) درّس شيوخها في أشهر المدارس الدمشقية، فضلاً عن تقلّدهم أرفع المناصب ومنها القضاء، ونظر الجيش، ونظر المدارس التي توارثها بعض علمائها منهم الشيخ الفقيه الخطيب القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن الكشك الأذرعي الدمشقي (ت٧٢٢هـ)، أبرز مشايخ الفقه الحنفي في عصره، تقلّد نيابة القضاء لمدّة عشرين عاماً، وكانت احكامه فيها سديدة، فحُمدت سيرته في قضائه، ومن ميزاته انه كان كثير البر والصلة، تولّى خطابة جامع الأفرم بدمشق، والتدريس في المدرسة اليغمورية والمعضمية والقليجية، فضلاً عن تولّيه تدريس المدرسة الظاهرية ونظرها (ابن كثير، ١٩٨٦م، ١٤/ ١٠٣)، (Ibn Katheer, 1986AD، ١٠٣/١٤)؛ ومن شيوخ هذه الأسرة الذين تمسّكوا بوظيفة نظر المدارس الشيخ الفقيه شهاب الدين أحمد بن محمود بن الكشك الأذرعي الدمشقي(ت٨٣٧هـ)، قاضي القضاة كاتب السّر بدمشق، ومدرس المدرستين الخاتونيتين، والنورية، والصادرية، والقصاعين، و لخبرته في مجال الادارة المالية ونزاهته أوكلت له معظم أنظار المدارس الحنفيّة في دمشق، إذ يوكّد السخاوي ذلك قائلاً: (("وكان بيده غالب مدارس الحنفية تداريس وأنظاراً من عامر وخراب ... انتهت إليه رياسة أهل الشام في زمانه، وكان شهماً قوي النفس يستحضر الكثير من الأحكام، ولي قضاء الحنفية بدمشق استقلالاً مدّة ثم

أضيف إليه نظر الجيش في الدولة المؤيدية ... وهو من بيت شهير بالعلم والرياسة")) (د.ت، ٢/ ٢٢١)، (Al-Sakhawi، ٢٢١/٢)، أي تولّى نظر الجيش في عهد السلطان المملوكي المؤيد سيف الدين أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري (ت٨٢٤هـ) (ابن تغري بردي، د. ت، ٦/ ٢٦٣)، (Ibn Taghri Bardi، ٢٦٣/٦)، ومن ثم نلاحظ أنه كُلف أيضاً بوظيفة نظر الجيش إلى جانب نظر المدارس الحنفية وهو دليل على خبرته في مجال الإدارة المالية.

د. أسرة ابن نوح المقدسي :

اسرة علمية إدارية معروفة في دمشق أصلها من بيت المقدس، توارث شيوخها وظيفة نظر المدرسة الرواحية بدمشق مبدوءة بالشيخ المحدّث شمس الدين عبد الرحمن بن نوح التركماني المقدسيّ الدمشقي (ت٦٥٤هـ)، كان بصيراً بالمذهب الشافعي، وتولّى التدريس في المدرسة الرواحية التي كان ناظراً فيها، وفي آخر أيّامه تنازل عن تدريس ونظر هذه المدرسة لابنه الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن نوح المقدسيّ الدمشقي (ت٦٨٩هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٤/ ٧٥٨)، (Al-Dhahabi, 2003 AD, 14/758) الذي تقلّد مناصب عدة إلى جانب نظر الرواحية وهي وكالة بيت المال ووكالة السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله العلائي الصالحي (ت٦٨٩هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٦٤٠)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٥/٦٤٠) فضلاً عن نظر جميع الأوقاف في دمشق، وهو شاهد جلّي على خبرته في مجال الإدارة المالية ممّا دفع السلطة الى توليته جميع هذه الوظائف التي تختص بالإدارة المالية، ولكن لم تُحمد سيرة الناظر محمد في وظائفه كونه كان فاسداً مرتشياً ظالماً متعسّفاً، كما تجاوز على أموال الأوقاف، فتعالت الشكاوى ضده، فبلغ ذلك السلطان المنصور قلاوون، فأرسل كتاباً إلى نائبه في دمشق بالكشف عمّا بذمته من أموال على وجه السرعة، فتحقّقوا منها ووجدوا عنده ما سرق من أموال الاوقاف، فعزل من وظائفه، وضُرب بالمقارع، وصودرت أمواله، وذاق الهوان بعدها، ثمّ وُجد مشنوقاً بعمامته في المدرسة العذراوية (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٦٤٢)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٥/٦٤٢)؛ (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ٢٠٢)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ٢٠٢/١)، وهنا لابد أن نقف وقفة إجلال واحترام مجردة من العواطف والميول عند هذه الرواية المهمّة التي تعكس لنا طبيعة تعامل السلطة الحاكمة تجاه موظفيها وسعيها في محاربة الفساد في مؤسسّات الدولة، فعلى الرغم من الخبرة التي كان يمتلكها ناصر الدين في مجال عمله لكن بسبب فساده الإداري والمالي عُزل من وظائفه، وعوقب وصودر وسجن وضرب من ولّاة الأمر الرافضين للفساد، ولا شك اذا ما كان هذا مسعى الحاكم عندئذ سيحل العدل بملكه، وتسود النزاهة والمهنيّة في مؤسّسات دولته والعكس صحيح، وقد تشفّى بمصيره بعض الذين ظلمهم الناظر

محمد منهم الشاعر سيف الدين أحمد بن محمد السامري الدمشقي (ت٦٩٦هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٨٣٥)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٥/٨٣٥) حيث ذهب إليه وهو مسجون في المدرسة العذراوية وتشفّى به، وقال بحقه قصيدة جاء فيها (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٦٤٢)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٥/٦٤٢):

"ورد البشير بما أقرّ الأعينا"	"فشفى الصّدور وبلغ الناس المُنَى"
"واستبشروا و تزايدت أفراحهم"	"فالكّل مشتركون فِي هذا الهنا"
"وتقدّم الأمر الشريف بأخذ ما"	"نهب الخؤون من البلاد وما اقتنى"
"يا سيّد الأمراء يا شمس الهدى"	"يا ماضي العزمات يا رحبَ الفنا"
"عجّل بذبح المقدسي وسلخه"	"واحقن دماء الإِسْلَام من وُلِد الزّنا"
"واغلُظ عَلَيْهِ ولا ترق فكلّ ما"	"يَلقَى بما كسبت يداه وما جنى"
"فَلَكَم يتيم مُدقع ويتيمه"	"من جوره باتوا عَلَى فرش الضّنا"
"ولكم غني ظلّ فِي أيّامه"	"مسترفدًا للنّاس من بعد الغنى"
"إن أنكر اللّصّ الخبيث فعاله"	"بالمسلمين فأوّل القتلى أَنَا"

ومن الأمور الأخرى التي يمكن أن نستنتجها من هذه الرواية شيوع ظاهرة توريث الوظائف والتي قد ينتج عنها أنها تؤول بحكم التوريث إلى أشخاص فاسدين غير مؤهلين لإدارتها بما يصب في المصلحة العامة، وكذلك لاحظنا أن فساد محمد ابن نوح أساء لسمعة أسرته في المجتمع، ممّا دفع بالشاعر السّامري أن ينعته بأسوأ وصف لشدّة غضبه على فساده بالمسلمين.

وبعد أن مات الناصر ابن نوح ورث عنه أخوه نظر المدرسة الرواحية وهو الشيخ المحدّث الفقيه بهاء الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن نوح المقدسي الدمشقي (ت٧٢٠هـ)، الذي أنقذ سمعة أسرته بعد أن اتى بها الأرض أخوه محمد، إذ حُمدت سيرته في وظيفته بشهادة الصفدي الذي امتدحه قائلاً: (("وكان من المباشرات مشكوراً، وبالأمانة والعفّة مذكوراً، وفيه خيرٌ وبرّ، وتعهّدٌ للأصحاب في العلن والسرّ، وعنده كفاية ونهضة، ومروة يؤدي بها في الإحسان فرضه، ووقفَ على جهات البرّ أوقافاً، جعلت له في أغوار الذكر الجميل أحقافاً، ولم يزل على حاله إلى أن برز للرحيل نوقه، وأقام الموتُ سوقه... وكان ناظر المدرسة الرواحية بعد أخيه")) (١٩٩٨م، ١/ ٩١)، (Al-Safadi, 1998 AD، ١/٩١)، وقد استقرّ الشيخ البهاء في نظر الرواحيّة لأكثر من ثلاثين عاماً، تولّى خلالها

أيضاً نظر أوقاف الحرمين، وجامع العقبية (الصفدي، ١٩٩٨م، ١/ ٩١)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٩١/١).

٧. نظر الخزانة:

وهي من وظائف الإدارة المالية المهمّة، وتعرف أيضاً بنظر الخزانة الكبرى أو العالية، ومتولّيها يُعيّن بتوقيع كريم من نائب السلطان، يتولّى صاحبها إدارة شؤون الخُلع الموجودة في الخزانة، وله أعوان منهم صاحب ديوان الخزانة (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٣١، ١٩٧، ١٢/ ٣٩٨)، (Al-Qalqashandi، ٣١/٤، ١٩٧، ٣٩٨/١٢)، وقد توارثت الأسر العلمية في دمشق هذه الوظيفة منها:

أ. أسرة بني أبي الطيب النهاوندي:

ذكرناها آنفا، توارث بعض علمائها وظيفة نظر الخزانة بدمشق منهم الشيخ نجم الدين عمر بن هبة الله بن أبي الطيب العجلي النهاوندي الدمشقي (ت٧٠٤هـ)المذكور آنفا (الصفدي، ١٩٩٨م، ٣/ ٦٤٧)، (Al-Safadi, 1998 AD، ٦٤٧/٣)؛ ثمّ أورثها لابنه من بعده الشيخ نجم الدين محمد بن عمر بن أبي الطيب العجلي الدمشقي (ت٧٤٢هـ) الذي تقدّم عرضه (النعيمي، ١٩٩٠م، ١/ ٣٤٠)، (Al-Nuaimi, 1990 AD، ٣٤٠/١)؛ ثمّ ورثها عنه ابنه الشيخ المحدّث تقي الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أبي الطيب العجلي الدمشقي (ت٧٦٨هـ)، إذ تولّى نظر الخزانة السلطانية وتوقيع الدست، ومن مآثره كان كثير التلاوة للقرآن الكريم، وبارّاً بالفقراء (ابن رافع، ١٩٨١م، ٢/ ٣٢٩)، (Ibn Rafi', 1981 AD، ٣٢٩/٢)؛ ثمّ ورث عنه ابنه الشيخ ناصر الدين محمد بن عمر بن أبي الطيب العجلي النهاوندي الدمشقي (ت٨٠٣هـ) وظيفة نظر الخزانة، فضلاً عن تقلّده وظائف اخرى دلّت على عظيم شأنه في الإدارة وهن وظيفة كاتب السّر في كل من مدينة حلب وطرابلس ودمشق (السخاوي، د.ت، ٨/ ٢٦٢)، (Al-Sakhawi، ٢٦٢/٨)، إذن لاحظنا توارث أربعة من شيوخ هذه الاسرة وظيفة نظر الخزانة في دمشق ابناً عن أب.

ب. أسرة ابن النحّاس الأسدي:

اسرة علمية ادارية دمشقية أصلها من حلب (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٨٢٥)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٢٥/١٥) تولّى علماؤها تدريس اشهر المدارس في دمشق وأجل وظائفها ومنها وظائف الإدارة المالية كوظيفة نظر الخزانة وغيرها التي توارثها شيوخها منهم الشيخ المحدّث الفقيه المعماري محيي الدين أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن النحّاس الحلبي الدمشقي (ت٦٩٥هـ) مدرّس المدرسة الظاهرية الجوانية، والزنجارية، والريحانية في دمشق، أمّا دوره في مجال الإدارة فلم يقل شأناً عن دوره في تدريس العلوم، إذ تولّى الرفيع من المناصب الدينية والسياسية والإدارية كالقضاء، والوزارة، وامارة الحجّ، كما تقلّد وظائف

عدة في مجال الإدارة المالية وهي وظيفة نظر الخزانة، ونظر الدواوين، ونظر الأوقاف، وكل ذلك ينم عن عظيم خبرته في كل هذه المجالات، وكبير قدره لدى السلطة الحاكمة آنذاك، إذ وصف الذهبي سمو مكانته في أنفس الدماشقة بالقول: ((واستوطن دمشق، فعومل بالإكرام والاحترام لعِلمه ورياسته وخبرته وأمانته، وولي الوزارة مرّة، وولي نظر الخزانة، وولي نظر الدّواوين، وولي نظر الأوقاف)) (٢٠٠٣م، ١٥/ ٨٢٥)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٢٥/١٥)؛ ثمّ ورث عنه ابنه الشيخ الفقيه شهاب الدين يوسف بن محمد بن النحّاس الحلبي الدمشقي (ت٦٩٨هـ)، وظيفة نظر الخزانة فضلاً عن تدريس الظاهرية والريحانية بدمشق (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٨٩٠)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٩٠/١٥).

٨. نظر الجامع الأموي:

وهي من أجل وظائف النظر لكونها تختص بإدارة الشؤون المالية لأكبر المساجد في دمشق، وفي الغالب يكون متولّيها قاضي القضاة الشافعي (القلقشندي، د.ت، ٤/ ١٩٨، ١٢/ ٢٩٧ – ٢٩٩)، (Al-Qalqashandi، ١٩٨/٤، ٢٩٧/١٢-٢٩٩)، ويعينه نائب السلطان بدمشق (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٣/ ٣٢)، (Al-Safadi, 2000 AD، ٣٢/١٣) ومن الأسر العلمية الدمشقية التي توارث شيوخها هذه الوظيفة:

أ. اسرة الاشراف بني أبي الجن الحسينية:

سبق التعريف بها، تولّى بعض أشرافها وظيفة نظر الجامع الأموي منهم الشريف زين الدّين الحسين بن محمد بن أبي الجن الحسيني الدمشقي (ت٧٠٨هـ)، إذ أوكل إليه الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب السلطان في دمشق وظيفة نظر الجامع الأموي (الصفدي، ٢٠٠٠م، ١٣/ ٣٢)، (Al-Safadi, 2000 AD، ٣٢/١٣)؛ وكذلك الشريف المحدّث الفقيه شهاب الدين أحمد بن علي بن أبي الجن الحسيني الدمشقي (ت٨٣٣هـ)، نال المقبولية الوافرة لدى السلطة الحاكمة ،إذ أسندت إليه العديد من المناصب منها في دمشق كقاضي القضاة، وكاتب السّر، فضلاً عن وظائف الإدارة المالية كنظر الجامع الأموي، ونظر الجيش، ونظر المدرسة العذراوية، كما أوكلت له وظيفة كتابة السّر في مصر (السخاوي، د.ت، ٢/ ٥)، (Al-Sakhawi، ٥/٢).

ب. أسرة بني الزّكي القرشي:

اسرة علمية كبيرة دمشقية الأصل، ظهر منها العلماء الكبار في مجال علوم الحديث الشريف والفقه، والأدب، والتاريخ، وغيرها، الذين اعتلوا منابر العلم في كثير من المدارس الدمشقية، كما ساهم رجالها في دعم الحياة الإدارية من خلال تولّيهم المناصب وعلى رأسها القضاء، وكذلك النظر، إذ توارثها بعض شيوخها منهم الشيخ المسند الفقيه الخطيب قاضي القضاة محيي الدّين ابو المعالي محمد بن علي بن الزكي القرشي الدمشقي (ت٥٩٨هـ)،

ناظر الجامع الأموي، ومدرّس المدرسة العزيزية بدمشق، كان من صدور أعيان البلد، قال عنه الذهبي: (("وهو من بيت القضاء والحشمة والأصالة والعِلم ... وكان أديباً منشئاً، بليغاً، مُدرهاً، فصيحاً، مفوَّهاً")) (٢٠٠٣م، ١٢/ ١١٥٥)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١١٥٥/١٢)، وقد شهد فتح بيت المقدس في سنة (٥٨٣هـ)، وكان وقتها أوّل من ارتقى منبر المسجد الأقصى وخطب عليه بخطبة بليغة، وهو من المقرّبين جدّاً لدى السلاطين الأيوبيين في مقدمتهم السلطان الايوبي الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب (ت٥٨٩هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٨٩٠/١٢، ١١٥٥)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٩٠,١١٥٥/١٢)، وكذلك حظي بتقدير أخيه السلطان الايوبي العادل أبو بكر أحمد بن أيوب (ت٦١٥هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٣/ ٤٥٣)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٤٥٣/١٣)، إذ كان يبعثه على رأس سفاراته، منها عندما ارسله رسولاً إلى مصر إلى ابن أخيه الملك العزيز أبي الفتح عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبي(ت٥٩٥ هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٢/ ١٠٣٣)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٠٣٣/١٢) يحثه على الخروج للجهاد ضد الإفرنج (الذهبي، ٢٠٠٣م، ٨٩٠/١٢، ١١٥٥)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٩٠,١١٥٥/١٢)؛ وكذلك تولّى الشيخ الفقيه القاضي إمام الدين أبو محمد عبد العزيز بن يحيى بن الزكي القرشي الدمشقي (ت٦٩٩هـ) وظيفة نظر الجامع الاموي، ومن محاسنه كان صدراً محتشمًا، حسن الشكل، درّس وأفتى وتصدَّر فِي المجالس، ودوره في التعليم يتجسّد بتدريسه في المدرستين العزيزية والتقوية (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٩١٧)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٩١٧/١٥).

ج. أسرة بني الشيرجي:

سبق التعريف بها، توارث شيوخها وظيفة نظر الجامع الأموي ،منهم الشيخ المحدّث نجم الدين أبو غالب مظفّر بن محمد بن الشيرجي الأنصاري الدمشقي (ت٦٥٧هـ)، وقد تقدّم عرض ترجمته، (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٤/ ٨٦٨)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٨٦٨/١٤)؛ ثمّ أورث وظيفة نظر الجامع الأموي لابنه الشيخ عز الدين أبي البركات عيسى بن المظفر بن الشيرجي الانصاري الدمشقي (ت٦٨٢هـ) المذكور آنفا (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٤٧٩)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٤٧٩/١٥)؛ كما تقلّدها الشيخ المسند عماد الدين محمد بن أحمد بن الشيرجي الانصاري الدمشقي (ت٦٨٣هـ)، فضلاً عن توليه وظيفة نظر الخزانة، ومن طباعه كان ذا ديانة وحشمة وتواضع ومن رؤساء معاصريه (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٥٠٣)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٥٠٣/١٥)، وهكذا نلاحظ توارث شيوخ هذه الأسرة لعدد من وظائف الإدارة المالية وهي الحسبة، ووكالة بيت المال، ونظر

المدارس، ونظر الخزانة، فضلاً عن نظر الجامع الأموي، وذلك يدل على خبرتهم في هذا المجال، لذا حرصت السلطة الحاكمة في دمشق على إيكال هذه الوظائف لهم.

د. أسرة ابن النحّاس الأسدي:

عرض تعريفها آنفا، توارث بعض شيوخها وظيفة نظر الجامع الأموي في دمشق وهم كل من الشيخ محيي الدين أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن النحّاس الحلبي الدمشقي (ت٦٩٥هـ)، وابنه من بعده الشيخ شهاب الدين يوسف بن محمد بن النحّاس الحلبي الدمشقي (ت٦٩٨هـ) (الذهبي، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٨٢٥، ٨٩٠)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ١٥/٨٢٥، ٨٩٠) وقد تقدّم التعريف بالشيخين آنفاً.

٩. نظر الأيتام:

وهي من وظائف الإدارة المالية المهمّة كونها تختص بإدارة أموال اليتامى التي أوصى الله Y بعدم التجاوز عليها، لذلك تقع على عاتق متولّيها النظر في هذه الموال، والاحتياط عليها، واستثمارها ما دام اليتيم قاصراً، وعند بلوغه الرشد يُعيد إليه ماله، وفي الغالب يكون متولّيها من القضاة (القلقشندي، د.ت، ٤/ ٣٧، ٦٤، ١٤/ ٣٨٦)، (Al-Qalqashandi، ٣٧/٤، ٦٤، ٣٨٦/١٤) ومن الأسر العلمية التي توارثت هذه الوظيفة:

أ. أسرة بني قاضي عجلون:

ذكرت ترجمتها آنفا، وقد توارث بعض شيوخها وظيفة نظر الأيتام منهم الشيخ المحدّث زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن قاضي عجلون الدمشقي (ت٨٣٧هـ)، إذ حرص على إدارة أموال اليتامى أشد الحرص فحُمدت سيرته في وظيفته، ومن أخلاقه أنه كان متودّداً خيّراً ذا مروءة، محبوباً بين الناس لمروءته، وبشاشته وحسن ملتقاه (السخاوي، د.ت، ٤/ ١٤٣)، (Al-Sakhawi، ١٤٣/٤)؛ ثمّ ورث عنه ابنه الشيخ المحدّث القاضي برهان الدّين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن قاضي عجلون الدمشقي (ت٨٧٢هـ)، وظيفة نظر الأيتام فضلاً عن وظيفة نظر ديوان الاسرى بدمشق، ولم يرث الشيخ البرهان عن والده هذه الوظيفة وخبراته في مجال الإدارة الماليّة فحسب، بل ورث عنه قبلها خلاله الحميدة التي أهّلته لهذه الوظائف، إذ وصف لنا السخاوي هذه الخلال قائلاً: (("كان من خيار القضاة ومحتشميهم، حسن السيرة كثير التودّد و المكارم، طارحاً للتكلّف")) (د.ت، ١/ ٦٤)، (Al-Sakhawi، ١/ ٦٤).

ب. اسرة ابن هلال الأزدي:

اسرة علمية دمشقية، أنجبت كبار المحدّثين، توارث بعض شيوخها وظيفة نظر الأيتام لما امتازوا به من الديانة والأمانة والعفّة، منهم الشيخ المحدّث عماد الدين محمد بن عمر بن هلال الأزدي الدمشقي (ت٦٧٦هـ)، وصف الذهبي نبيل أخلاقه قائلاً: (("كان عدلاً

مأموناً ديّناً خيّراً، صاحب مكارم ولُطف، وحُسن محاضرة، وُلّي نظر الأيتام مدّة سنين، وحُمدت سيرته ... وهو من بيت مشهور بالعدالة والرياسة ورواية العلم")) (٢٠٠٣م، ١٥/ ٣٢٢)، (Al-Dhahabi, 2003 AD، ٣٢٢/١٥)؛ ثمّ ورث عنه ابنه الشيخ المحدّث نجم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن هلال الأزدي الدمشقي (ت٧٢٩هـ)، وظيفة نظر الأيتام بدمشق، ومن سماته كان من المعدّلين في زمانه، ويذاكر بأشياء نافعة بالتاريخ (السبكي، ٢٠٠٤م، ص: ٣٠١)، (Al-Subki, 2004 AD, p.: ٣٠١).

وممّا تقدّم من عرض لأشهر الأسر العلمية التي توارث شيوخها وظائف النظر في المؤسسات الإدارية في دمشق تبيّن مدى شيوع هذه سمة أو ظاهرة التوارث الوظيفي في نظام الإدارة المالية آنذاك.

الخاتمة:

وفي نهاية جولتنا بين أروقة مؤسسات الإدارة المالية بدمشق خلال عهد الدولتين الايوبية والمملوكية، وعمليات البحث في المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ التنظيمات الإدارية توصّلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج منها:

١. أن أصل مهام وظائف الحسبة، ووكالة بيت المال، والنظر تصب في مجال الادارة المالية للمؤسسات في دمشق.
٢. لم تكن هناك جهة واحدة محددّة تتولّى اصدار قرار التعيين في وظائف الإدارة المالية، ويبيّن ذلك لنا أن صلاحيات التعيين في المناصب الادارية بدمشق لم تقتصر على شخص واحد وهو السلطان، بل يجوز اناطة هذه الصلاحيات للأدنى منه وهو نائب السلطان، وهذا يعني أن السلطة الحاكمة لمصر وبلاد الشام كانت قد منحت صلاحيات واسعة للسلطة الإدارية في نيابة دمشق وغيرها من النيابات الاخرى في بلاد الشام التابعة للسلطة المركزية في مصر .
٣. أن وظائف الإدارة المالية في دمشق كانت لها أهمية كبيرة، ويقع على عاتقها مهام وواجبات كثيرة ومتعدّدة، ممّا اقتضى الأمر أن يكون لكل وظيفة موظفون مساعدون يتقاسمون هذه المهام لتخفيف أعباء العمل عن كاهل المسؤول الأعلى للوظيفة.
٤. لابد من توافّر صفات عدة- مؤهلات – لمن يُرشّح لإحدى وظائف الإدارة المالية (الحسبة، ووكالة بيت المال، والنظر)، منها الديانة، والعلم، والدراية في مجال الإدارة المالية، ورجاحة العقل، وقوة الشخصية، والأمانة، والعدل، والحزم، وغيرها.
٥. لا يشترط فيمن يتولّى وظائف الإدارة المالية أن يتفرّغ لهذه الوظيفة فقط، بل يجوز له أن يتقلّد وظائف عدة أخرى في آن واحد كأن يكون مدرّساً أو قاضياً، وذلك دليل على أن دمشق كانت تمتلك من الموارد البشرية ذات الكفاية والخبرة العاليتين.

٦. جمع بعض علماء الأسر في دمشق عددا من وظائف الإدارة المالية في آن واحد، ولم يتولّوا وظيفة واحدة فقط، وهو دليل على امتلاكهم الخبرة الواسعة في هذا المجال.
٧. ساهمت الأسر العلمية في دعم ازدهار جوانب الحياة العلمية والإدارية على حد سواء.
٨. حصل تنافس بين الأسر العلمية على تولّي وظائف الإدارة المالية في دمشق، بدليل توارث عدد من الأسر العلمية للوظيفة الواحدة، وهذا ما يفسّر انقطاع سلسلة التوارث بين شيوخ الأسرة الواحدة.
٩. لم تكن الأسر العلمية التي توارثت وظائف الإدارة المالية كلها من أصل دمشقي، بل كان منها ذات أصل عراقي، ومنها كان أصلها مشرقيا أي من بلاد المشرق الإسلامي، واخرى شامي، وغيرها، وهذا يدل على أن مدينة دمشق كانت القبلة العلمية التي اتّجهت إليها مختلف الأسر العلمية، فأضحت أجمل فسيفساء تزيّنت بألوان هذه الأسر.
١٠. انّ بقاء وظائف الإدارة المالية داخل الأسرة العلمية الواحدة تجسيداً عملياً حيّاً لصلة الارحام بين العوائل، والتعاضد بين أفرادها.
١١. إن جميع من أُسندت لهم وظائف الإدارة المالية كانوا في الأصل علماء أخيار مدرّسين – كفاءات –، وذلك يبيّن انّ السلطة الحاكمة في دمشق كانت تعرف يقيناً انّ هؤلاء العلماء هم الأدوات الصحيحة للنهوض بواقع النظام الإداري للدولة وابعاده عن آفة الفساد.
١٢. اتّخذت السلطة الحاكمة في دمشق الإجراءات الصارمة بحق الموظّف الذي مارس الفساد بعزله، وضربه، ومصادرة أمواله، ثم سجنه، كما حصل ذلك مع ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن نوح المقدسيّ الدمشقي (ت٦٨٩هـ)، وكيل بيت المال، وناظر الأوقاف و المدرسة الرواحية في دمشق.
١٣. إن نظام الإدارة المالية القائم في دمشق آنذاك، كان نظاماً يتّصف بالرصانة والجودة، والاستقلالية، والتعيين فيه للوظائف الإدارية يكون على وفق الاستحقاق الذي يعتمد على الأسس والمعايير الشفافة التي ذكرت آنفا .

والله وليّ التوفيق

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً: المصادر:

١. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (د.ت)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح، محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
٢. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (١٩٨٦م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (١٩٧٢م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد.
٤. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد(٢٠٠٣م)، تاريخ الإسلام، تح: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، د. م.
٥. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد(١٩٩٨م)، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦. ابن رافع، تقي الدين محمد بن هجرس السلامي (١٩٨١م)، الوفيات، تح: صالح مهدي عباس، وبشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٧. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (٢٠٠٤م)، معجم الشيوخ، تح: بشار عواد وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٨. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (١٩٨٦م)، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
٩. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (د.ت)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٠. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (١٩٢٧م)، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تح: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت.
١١. ابن الصابوني، جمال الدين محمد بن علي بن محمود المحمودي (د.ت)، تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والالقاب، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢. الصفدي، خليل بن أيبك (١٩٩٨م)، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد واخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت.
١٣. الصفدي، خليل بن أيبك (٢٠٠٠م)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت.
١٤. ابن العجمي، شهاب الدين أحمد بن أحمد المصري (٢٠١١م)، لب اللباب في تحرير الأنساب، تح: شادي بن محمد، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، اليمن.
١٥. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (د.ت)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، د. م.
١٦. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد (١٩٨٦م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق.
١٧. الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (١٩٩٧م)، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨. ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد (١٩٨٦م)، طبقات الشافعية، تح: الحافظ عبد العليم، عالم الكتب، بيروت.
١٩. القرشي، محيي الدين عبد القادر بن محمد (د.ت)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه، كراتشي.
٢٠. القلقشندي، أحمد بن علي (د.ت)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (١٩٨٦م)، البداية والنهاية، دار الفكر، د. م.
٢٢. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (١٩٩٧م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣. النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي(١٩٩٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤. اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (١٩٩٢م)، ذيل مرآة الزمان، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

ثانياً: المراجع:

٢٥. حمد، خالد سليمان (١٩٩٧م)، إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي، أُطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان.
٢٦. دهمان، محمد احمد (١٩٩٠م)، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت.
٢٧. عواد، رياض سالم (٢٠٢٠م)، نقابة الاشراف في مصر وبلاد الشام منذ القرن الرابع حتى القرن العاشر للهجرة –دراسة تاريخية في النشأة والتطوّر–، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع: ١٣٤، العراق.

References

1. Ibn Taghry Bardi, Jamal Al-Din Abu Al-Mahasin Yusef, alminhal alsafi wal mustawfi ba’d alwafi.
2. Ibn Hajar al-Asqalani, Shihab al-Din Ahmad bin Ali (1986 AD), 'inba' alghamur bi'abna' al'umur, Dar Al- kutub Al-elmya, Beirut.
3. Ibn Hajar al-Asqalani, Shihab al-Din Ahmad bin Ali (1972 AD), aldurar alkamina fi 'ayan alma'a althamina, Council of the Ottoman Encyclopedia, Hyderabad.
4. Al-Dhahabi, Shams al-Din Muhammad bin Ahmed (2003 AD), Ta'rikh al'islam, Dar Al-Gharb Al-Islami, (no. p).
5. Al-Dhahabi, Shams al-Din Muhammad bin Ahmed (1998 AD), al'bar fi khabar min ghabar, Dar Al- kutub Al-elmya, Beirut.
6. Ibn Rafi’, Taqi al-Din Muhammad ibn Hajras al-Salami (1981 AD), alwafyat, investigation: Saleh Mahdi Abbas, and Bashar Awwad Maarouf, Al-Risala Foundation, Beirut.
7. Al-Subki, Taj al-Din Abd al-Wahhab ibn Ali ibn Abd al-Kafi (2004 AD), muejam alshuyukhi, investigation: Bashar Awad and others, Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut.
8. Al-Subki, Taj Al-Din Abdul-Wahhab bin Ali bin Abdul Kafi (1986 AD mueid alnieam wamubid alnaqami, Cultural Books Foundation, Beirut.
9. Al-Sakhawi, Shams al-Din Muhammad ibn Abd al-Rahman (no. d), aldhaw'a allaami'a li'ahl alqarn altaasi'a, library of Life, Beirut.
10. Al-Suyuti, Jalal al-Din Abd al-Rahman bin Abi Bakr (1927 AD), nazm aleiqyan fi 'aeyan al'aeyani, Investigation: Philip Hitti, Scientific Library, Beirut.
11. Ibn Al-Sabouni, Jamal Al-Din Muhammad bin Ali bin Mahmoud Al-Mahmoudi, takmilat 'iikmal al'iikmal fi al'ansab wal'asma' wal'alqabi, dar alkutub aleilmiati, bayrut .
12. Al-Safadi, Khalil bin Aybiq (2000 AD), Al-Wafi bilwafiyyat, Dar ehyaa Al-turath, Beirut.

13. Al-Safadi, Khalil bin Aybiq (1998 AD), aaeyan al'asr wa aawan alnasr, Dar Al-fikr Al-mu'asir, Beirut.
14. Ibn al-Ajmi, Shihab al-Din Ahmed bin Ahmed al-Masri (2011 AD), lub allubab fi tahrir al'ansabi, investigation: Shadi bin Muhammad, Al-Numan Center for Research and Islamic Studies, Heritage Verification and Translation, Yemen.
15. Ibn al-Adim, Kamal al-Din Omar bin Ahmed (no. d), bighyat altalab fi ta'rikh halab, Dar al-Fikr, no. p.
16. Ibn al-Imad al-Hanbali, Abd al-Hay bin Ahmad (1986 AD), shadharat aldhahab fi 'akhbar min dhahba, investigation: Mahmoud Arnaout, Dar Ibn Katheer, Damascus.
17. Al-Ghazi, Najm Al-Din Muhammad bin Muhammad (1997 AD), alkawakib alsayirat bi'aeyan almiat aleashrati, investigated by: Khalil Al-Mansour, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut.
18. Ibn Qazi Shahba, Taqi al-Din Abu Bakr bin Ahmad al-Dimashqi (1986 AD), tabaqat alshaafieiati, investigated by: Al-Hafiz Abdel Alim, the world of books, Beirut.
19. Al-Qurashi, Muhyi Al-Din Abdul Qadir Bin Muhammad (no.d), aljwahir almadiat fi tabaqat alhanafiati, Mir Muhammad Kutub Khanah, Karachi.
20. Al-Qalqashandi, Ahmed bin Ali Al-Fazari (no.d), subuh al'aasha fi sina'at al'insha, Dar Al- kutub Al-elmya, Beirut.
21. Al-Maqrizi Taqi al-Din Ahmed bin Ali (1997 AD), alsuluk limaerafat dual almuluki, investigated by: Muhammad Abdul-Qadir Atta, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut.
22. Al-Nuaimi, Abdul Qadir bin Muhammad Al-Dimashqi (1990 AD), aldaaris fi taarikh almadarisi, investigation: Ibrahim Shams Al-Din, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut.
23. Al-Yunini, Qutb Al-Din Abu Al-Fath Musa bin Muhammad (1992 AD), dhayl murat alziman, ta2, dar alkatab al'iislami, alqahirati.
24. Hamad, Khaled Suleiman (1997), The Administration of the Levant in the Ayyubid Era, unpublished doctoral thesis, College of Graduate Studies, University of Jordan, Amman.
25. Dahman, Muhammad Ahmad (1990), Dictionary of Historical Terms in the Mamluk Era, dar alfikr almaeasiri, bayrut
26. Awad, Riad Salim (2020), The Supervision Syndicate in Egypt and the Levant from the Fourth Century to the Tenth Century of Migration -A Historical Study in Origin and Development-, AL-ADAB Journal, University of Baghdad, no. 134, Iraq.